كتاب نامق كمال "أوراق پريشان" دراسة تاريخية نقدية

إعداد

د. مجدي حسانين إسماعيل حسن الحنفي

قسم اللغات الشرقية شعبة اللغة التركية كلية الآداب_ جامعة طنطا

المستخلص:

صدرت النسخة الأولى من كتاب نامق كمال أوراق پريشان (أوراق مُبعثرة) عام ١٨٧١م، وطُبع بعد ذلك ثلاث مرات خلال خمس سنوات، والكتاب جمع بين دفتيه مقالة دور إستيلا " عصر الفتوحات" التي صدرت أول مرة في صحيفة تصوير الأفكار عام ١٨٦٧م، وأربع سير ذاتية صدرت متفرقة من قبل، وهي سيرة صلاح الدين وسيرة السلطان محمد الفاتح، وسيرة السلطان سليم الأول، وسيرة أمير نوروز بك، وكان لكل سيرة من هذه السير الأربع باعث على الكتابة؛ فقد كتب نامق كمال سيرة صلاح الدين ردًّا على المستشرق الفرنسي ميشون، وكتب سيرتي محمد الفاتح وسليم الأول ردًّا على المستشرق النمساوي هامر، وكتب سيرة أمير نوروز بك دفعًا لجهل كثير من الناس ولا سيما المثقفين بالدور الذي اضطلع به هذا الأمير في إدخال المغول الإسلام وتحويلهم من قوة هدم إلى قوة بناء، أما المقالة التي صّدر بها نامق كمال الكتاب فكانت للتأريخ للدولة العثمانية منذ النشأة، وحتى آخر عصر السلطان سليمان القانوني. وتمتاز لغة الكتاب بالسلاسة والجزالة، وقد التزم فيه نامق كمال الاستبسال في الدفاع عن العثمانيين حكامًا وشعبًا، وبرر فيه كل هنات ومثالب كل من عرض لهم من الحكام العثمانيين مما أخل بالناحية الموضوعية للكتاب، كما اعتنى فيه بالناحية الأدبية على حساب الناحية التاريخية مع حبه للتاريخ واستقائه رواياته ومسرحياته منه، ومحاولته التأريخ غير مرة للدولة العثمانية.

الكلمات الإفتتاحية:

نامق كمال، أوراق پريشان، دراسة تاريخية نقدية

كتاب نامق كمال "أوراق پريشان" دراسة تاريخية نقدية

مقدمة

أهمية البحث، جدارته: يعد نامق كمال واحدًا من طائفة الأدباء المؤرخين، فقد أحب التاريخ واستلهم منه أحداث العديد من رواياته ومسرحياته([1])، فكان يرى في التاريخ استنهاضًا للهمم وتربية للأفكار العلوية في الإنسان. وإن الإعجاب بالتاريخ أمر بَدَهِيٌّ في حق كاتب أخذ على عاتقه توصيل مجتمع تقهقر سياسيًا وعسكريًا واقتصاديًا وفكريًا إلى ركب الحضارة، والعمل على نهضة إمبراطورية شرعت في الانهيار والتردي بعد أن كانت تسود العالم. ومن الممكن أن نبرهن على ذلك بأن نقول إن الأديب العالمي فيكتورهوجو (1802-1885) الذي تأثر به نامق كمال كثيرًا كان يتحرك في أعماله الأدبية من التاريخ، إذ كان معجبًا بسرد الأحداث التاريخية أشد الإعجاب([2]). وانطلاقًا من هذا خاض نامق كمال غمار التأريخ للدولة العثمانية بكتابيه التاريخ العثماني، وأوراق بريشان، إضافة إلى بعض المحاولات الأخرى، ودارت هذه الدراسة عن كتاب "أوراق بريشان" (أوراق مبعثرة)، وقد عثرت على نسخة إلكترونية في مكتبة جامعة تورنتو الكندية، وصدرت هذه النسخة في إسطنبول عام ١٨٧١م، وقد ضم الكتاب بين دفتيه مقالة دور إستيلا "عصر الفتوحات" التي صدرت في صحيفة تصوير الأفكار عام ١٨٦٧م وأربع سير ذاتية عن كل من صلاح الدين الأيوبي والسلطان محمد الفاتح والسلطان سليم الأول وأمير نوروز بك. وقد صدرت المقالة سالفة الذكر وكل سيرة من هذه السير الأربع منفردة قبل أن يجمعها نامق كمال في كتاب واحد، ([3]) وهو كتاب جدير بالدراسة والتحليل بغية معرفة الطابع الفكري السائد لأعلام الفكر والثقافة في الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر، والمنهج الفكري والإصلاحي الذي انتهجه المفكرون والإصلاحيون الترك في الدولة العثمانية في ذلك القرن، والتيارت الفكرية والأدبية التي كانت رائجة في قرنٍ شهد انفتاح الدولة العثمانية على العالم الغربي وتجاذبًا فكريًا بين أنصار الأخذ عن الغرب وأنصار التمسك بالموروث القديم، وقد حقق الكتاب رواجًا واسعًا؛ فصدرت منه طبعات عديدة في سنوات متعاقبة.

صعوبات البحث: واجهت الباحث عند إجراء هذه الدراسة صعوبات عدّة، أهمها أن نقد كتاب تاريخي لأديب تركي عاش في القرن التاسع عشر، وتنوعت نتاجاته الأدبية بين الروايات والمسرحيات والتأريخ يتطلب المعرفة بفكره، والمنهج الذي انتهجه في كتابة التاريخ، والأدباء الذين تأثر بهم، والمصادر التي استقى منها كتاباته في التاريخ، ولا يتحقق ذلك إلا بالرجوع إلى أعماله الأدبية التي أصدرها والمصادر التركية التي تناولته بالبحث والدراسة، كما يتطلب أيضًا المعرفة بالموضوع الذي تناوله الكاتب حتى يتسنى إجراء دراسة نقدية موضوعية، وقد راجعت أعمال نامق كمال في الأدب والفكر والتاريخ، كما استعنت بأمهات المصادر التركية التي تناولت نامق كمال بالبحث والدراسة وعلى رأسها كتاب مدحت جمال قونطاي

([1]) كتب نامق كمال ست مسرحيات وروايتين، أما المسرحيات فهي: جلال الدين خوارزمشاه، الوطن أو سيلسترا، الطفل المسكين، عاكف بك، كولنهال، الخطب العظيم، أما الروايتان فهما رواية جزمي، ورواية انتباه.
Ömer Faruk AKÜN, Namık Kemal'ın kitap halindeki eserlerinin ilk neşirleri,Türkiyat Macmuası, ıl.1976, C.18.

([2]) أحمد حمدي طانبينار، تاريخ الأدب التركي في القرن التاسع عشر، ترجمة مجدي حسانين إسماعيل، الكويت ٢٠٢١، ص: ٣٩٥.

([3]) الأمير نوروز بن آرغون أقا الأويراتي، كان من أهم أمراء الحلقة القريبة من الإيلخان أرغون بن أبقا بن هولاكو، لم تذكر المصادر تاريخًا محددًا لمولده، وقد قتل عام ١٢٨٩م. انظر فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، بيروت: ١٩٧٠. ص:٤٥.

المسمى" نامق كمال" الذي صدر في اسطنبول عام ١٩٤٤ وكتاب ابن الأمين محمود كمال إينال الشعراء الترك في العصر الأخير في نسخة عام ١٩٧١ إضافة إلى العديد من المصادر التركية الأخرى ذات الصلة.

وكانت الصعوبة الثانية تكمن في أن كتاب نامق كمال "أوراق بريشان" يفتقد إلى التسلسل التاريخي؛ فالكتاب يضم مقالة عن تاريخ نشأة الدولة العثمانية، وأربع سير ذاتية لأبطال عاشوا في أزمنة متباعدة وبيئات متباينة ولغات مختلفة، هي العربية والفارسية والتركية، واستوجب هذا الرجوع إلى المصادر العربية والفارسية والتركية فضلا عن المصادر الأجنبية الأخرى ذات الصلة. كما أن الكتاب يفتقد إلى الوحدة الموضوعية؛ فكما أن موضوع المقالة التي صدّر بها نامق كمال الكتاب يختلف عن موضوع السير الذاتية الأربع، فإن الهدف من كل سيرة ذاتية عرضها يختلف عنه في السيرة الأخرى، وقد استتبع ذلك تغير أسلوب نامق كمال التأريخي في كل سيرة من هذه السير. وقد ذُلِّلت هذه الصعوبات بترجمة أجزاء وافية من الكتاب، والرجوع إلى أمهات الكتب في تاريخ الدولة المغولية في العربية والفارسية، والتزام مراجعة الأساتذة المتخصصين وأخذ نصائحهم وتوجيهاتهم بعين الاعتبار. أما ثالثة الصعوبات فتتمثل في أن الكتاب ضمّ بين دفتيه مقالة وأربع سير ذاتية صدرت كل منها منفردة قبل أن يجمعها كتاب واحد باسم " أوراق بريشان"، فضلا عن أن الكتاب قد فُقدت منه صحيفتان، هما الصحيفة الأولى من مقدمة الكتاب والصحيفة الخامسة عشرة من مقالة "دور إستيلا"، وقد استوجب ذلك الرجوع إلى إصدارات المقالة والسير الذاتية السابقة قبل أن يضمها نامق كمال في كتاب واحد، ومقارنتها بنسخة الكتاب الذي اعتمدت عليه هذه الدراسة، وقد قارنت نسخة الكتاب بالنسخ المنفردة من كل من المقالة والسير الذاتية الأربع فلم أعثر فيها على أي اختلاف عما في مضمون الكتاب، ومازال الكتاب في لغته التركية العثمانية ولما ينقل إلى التركية الحديثة.

تقسيم البحث: اقتضت الدراسة ترجمة أجزاء وافية من الكتاب، فترجمت مقالة "دور إستيلا" كاملة، وشفعتها بترجمة أجزاء ضافية من كل سيرة ذاتية من السير الأربعة التي أوردها نامق كمال في كتابه أوراق بريشان بغية تقديم دراسة تاريخية نقدية مستفيضة عن الكتاب، وقد اخترت لها عنوان " كتاب نامق كمال أوراق بريشان - دراسة تاريخية نقدية"، وجاءت الدراسة في ثلاثة فصول إضافة إلى المقدمة والخاتمة وقائمة بالمصادر والمراجع، وقد جاءت الفصول على النحو الآتي:

خصصت الفصل الأول للعناصر الآتية: التعريف بنامق كمال، التعريف بكتاب أوراق بريشان، مقدمة كتاب أوراق بريشان، نامق كمال والتاريخ، وطرحت سؤالا: كيف جسد نامق كمال أفكاره في شخصيات هذا الكتاب؟ وأجبت عنه في ضوء المعلومات التي استقيتها من مؤلفات نامق كمال التاريخية.

وأفردت الفصل الثاني لعرض محتويات الكتاب، وقد اقتضت الدراسة أن يُعرض في خمسة مباحث، وقد جاءت هذه المباحث على النحو الآتي: المبحث الأول: ترجمة مقالة "دور إستيلا " مع عرض الدراسة التاريخية النقدية لها. المبحث الثاني: سيرة صلاح الدين وكيف ردّ نامق كمال على الشبه التي أثارها المستشرقون حوله. المبحث الثالث: سيرة محمد الفاتح ومذهب نامق كمال في الرد على الشبه والأخطاء التي أثيرت حوله ونقدت هذا المذهب وأمطت اللثام عن عواره في بعض المواضع. المبحث الرابع: سيرة سليم الأول ومذهب نامق كمال في الرد على الشبه والأخطاء التي أثيرت حوله على الرغم من ثبوت بعض هذه المثالب.المبحث الخامس: سيرة أمير نوروز بك والمعاني التي أراد نامق كمال تأصيلها من هذه السيرة. أما الفصل الثالث فكان رؤية نقدية تاريخية شاملة للكتاب.

وكما رجعت إلى أمهات كتب التاريخ في التركية والعربية والفارسية التي تناولت المدة الزمنية التي عرض لها نامق كمال، وكذلك الكتب التي تناولت فكر نامق كمال بالدراسة والتحليل فإنني استعنت أيضًا بأمهات الكتب العربية التي تفصل القول في شروط التأريخ والصفات التي يجب أن تتوفر في المؤرخ، وفقه التأريخ، ووجدت ذلك تفصيلا في كتاب مقدمة ابن خلدون، وكتاب إشكالية التحيز للأستاذ الدكتور عبدالوهاب المسيري الذي يعد موسوعة ضمت بين دفتيها كتبًا ومقالات تتحدث عن إشكالية التحيز، ومنها كتاب الدولة العثمانية: أبعاد التحيز في دراسات النظام الدولي وفي دراسات التاريخ الإسلامي للأستاذ الدكتور نادية مصطفى عبد الشافي، ومقالة الأستاذ طارق البشري بعنوان التحيز في كتابة التاريخ، وآمل أن تكون هذه الدراسة قد أوفت بالغرض وحققت الأمل المنعقد عليها.

الفصل الأول:

أ. التعريف بنامق كمال:

ولد نامق كمال في مدينة تكير طاغ يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر شوال ١٢٥٦هـ الموافق ٢١ ديسمبر ١٨٤٠م. ووالده مصطفى عاصم بيك رئيس الفلكيين في عصره، وينحدر نسبه من جهة والده إلى الصدر الأعظم طوبال عثمان باشا الذي استُشهد في حرب الدولة العثمانية ضد إيران في عصر السلطان محمود الأول الذي ولي الحكم بين أعوام ١٧٣٠ – ١٧٥٤م، ([4]) وقد مدح المستشرق الألماني هامر جدّ نامق كمال قائلًا: كان ذا فكر متفتح. وأمه نسيمة هانم ابنة عبد اللطيف باشا من أشراف مدينة قونيقه الذي رُقِّي حتى بلغ درجة الأميرالاي. وقد ماتت والدة نامق كمال وهو طفل صغير عندما كان والدها عبد اللطيف باشا في مَهَمَّة وظيفية في مدينة أفيون. وقد أمضى نامق كمال ولا سيما بعد هذا التاريخ طفولته التي لم تنفصل عن عبد اللطيف باشا وباكورة شبابه تقريبًا بجواره.([5])

وكان تعليم نامق كمال وفقًا للمصادفات الوظيفية لجده، فقد واظب ثلاثة شهور إبان وجوده في إسطنبول على المدرسة المتوسطة في حي بايزيد وعلى مدرسة الوالدة أيضًا مدة سبعة أشهر. ولا نعلم شيئًا عن حياته في بواكير هذه المدة، وتبدأ الحياة الحقيقية لنامق كمال وفقًا للسيرة الذاتية المتشعبة المبهمة التي كتبها ابنه أكرم بيك على شاكلة رواية بتعيين جده عبد اللطيف باشا واليًا على إمارة "قارص". وكان نامق كمال يبلغ من العمر اثني عشر عامًا إبان ذهابه في معية جده إلى هذه الإمارة، فقد مرَّا من هناك على إمارة صوفيا.([6])

تزوج نامق كمال في صوفيا وهو في السادسة عشرة من عمره، ولا ريب أن كل شيء كان مبكرًا عنده على هذا النحو؛ فقد قرض الشعر وهو في الرابعة عشرة، وكان له ديوان شعري وهو في الثانية والعشرين، ولما بلغ الخامسة والعشرين من عمره اشتهر بأشهر توقيع في عصره.([7])

ب. نامق كمال والتاريخ:

كان نامق كمال شديد الولع بالتاريخ، واستمد منه جل نتاجه الأدبي، واصطبغت كتابته عامة بالصبغة التاريخية، فكان يرى أن التاريخ أكبر حافز لنهضة الأمة، وقد خاض نامق كمال بشوق عارم الكتابة في التاريخ ثلاث مرات حتى مهد السبيل لتصنيف كتابه التاريخ العثماني، ولا ريب أن مقالته المسماة "أوروبا

([4]) Nihad Sami Banarli ,Resimli Türk edebiyati tarihi, Istanbul1972, 11.s,801 .

([5]) Ibnülemin mahmud kemal Inal, son asır Türk Şairleri, Istanbul 1970, s. 455

([6]) Mithat Cemal Kuntay , Nâmık Kemal',1.cilt, Istanbul 1944, s.843.

([7]) أحمد حمدي طانبينار،المرجع السابق، ص: ٣٨٥.

لا تعرف الشرق" التي صدرت في العدد السابع من صحيفة العبرة بتاريخ ٢٢ يونية ١٨٧٢م تُعد بداية جميع هذه الأعمال التي تناولت التاريخ؛ إذ يقول نامق كمال في هذه المقالة إن العلماء الأوروبيين يخطئون دائمًا في حق الشرق.([٨]) وتتعقب مقالة "بارقة النصر" الخاصة بفتح إسطنبول هذه التجربة الأولى، وقد كتبها بعد عودته من أوروبا، وإن السبب في عدم إدراجه هذه المقالة التي كُتبت على نمط الإنشاء القديم في كتاب "أوراق بريشان" يَكْمُنُ في أنها لم تُكْتَبْ باللغة السهلة التي سيفهمها الشعب وأكد نامق كمال عليها في كتاب أوراق بريشان موضوع البحث وفي مقدمة كتابه "تاريخ العثمانيين"، وإن التجربة الثالثة في كتابة التاريخ تتمثل في كُتب السير الذاتية التي كوّنت كتاب "أوراق بريشان"، الذي ضم أيضًا مقالة "دور إستيلا" الذي تحدث فيها عن فتوحات السلاطين العثمانيين الأوائل، وتعد هذه السير الذاتية أنضج أعمال نامق كمال وأكثرها تعريفًا به في إمكاناته ومزاياه.(٩) أما العمل التاريخي الكبير لنامق كمال فيتمثل في كتابه " التاريخ العثماني"، وقد أولى نامق كمال أهمية قصوى في كتابه تاريخ العثمانيين لمكانة الحياة العلمية في الدولة العثمانية أواخر القرن السادس عشر الميلادي مع أنواع الثورات وحالات التمرد التي تزعمتها فرقة الإنكشارية. وأوضح أن عوامل هدم الإمبراطورية العثمانية كانت بسبب فرقة الإنكشارية. وقد توقف تناوله التاريخ العثماني حتى عام١٤٧٩م.([١٠])

ج. التعريف بكتاب أوراق پريشان:

يمكننا القول إن نامق كمال أوراق صنف كتابه "أوراق بريشان" في خمسة مباحث على شاكلة مقالة وأربع سير ذاتية، وجعل كل مبحث قائمًا بذاته، فأفرد له عنوانًا وجعل له ترقيمًا منفردًا، وصدّر كل مبحث بتدوين تاريخ ومكان طباعته الأولى قبل جمعه في كتاب "أوراق بريشان"، وقد أفرد المبحث الأول لمقالة دور إستيلا " عصر الفتوحات" التي صاغها للحديث عن تاريخ العثمانيين منذ النشأة حتى آخر عصر السلطان سليمان القانوني، وقد استغرقت هذه المقالة ستًا وعشرين صحيفة، وخلت من ذكر تاريخ ومكان طباعتها إلا أننا نعرف من المصادر التي تناولت نامق كمال ونتاجه الأدبي بالبحث والدراسة أنها صدرت في جريدة تصوير الأفكار عام ١٨٦٧م، ثم صدّر بها كتاب أوراق بريشان عام ١٨٧١م، وكان المبحث الثاني لأول سيرة ذاتية من السير الأربع، وهي السيرة الذاتية لصلاح الدين الأيوبي، وبين أنه أبطل الشبهات التي أوردها بعض مؤرخي الغرب عن صلاح الدين خاصة المستشرق الفرنسي ميشون؛ فقد بلغه أن أحد المترجمين الترك نقل آراء مستشرقي الغرب عن صلاح الدين من الفرنسية إلى التركية دون الرد عليها وتفنيدها فانبرى نامق كمال للدفاع عنه، وقد استغرق حديثه عن صلاح الدين مائة وخمسًا وعشرين صحيفة تقريبًا، وذكر في صدر هذه السيرة أنها طبعت أول مرة في المطبعة المقابلة للباب العالي عام ١٢٨٨ هـ برقم ٥٧، وكان المبحث الثالث لسيرة محمد الفاتح، فتحدث عن نشأته وعن انجازاته ،وأنه توّج هذه الإنجازات بفتح القسطنطينية، وجاء حديثه عن محمد الفاتح في تسعين صحيفة تقريبًا، وذكر أن سيرة محمد الفاتح طبعت أول مرة في مطبعة أحمد مدحت أفندي برقم ١٣، دون أن يذكر التاريخ، وخصص المبحث الرابع لسيرة السلطان سليم الأول، فتحدث عن نشأته وفتوحاته في العراق والشام ومصر، وحصوله على لقب خليفة المسلمين، وذكر أنه طبع في مطبعة أحمد مدحت أفندي، دون أن يذكر التاريخ، أما المبحث الخامس فقد خصصه للحديث عن سيرة الأمير المغولي أمير نوروز بك الذي أقنع ثلة من قادة المغول باعتناق الإسلام وكان الفضل له في تحويل دولة المغول من الوثنية إلى الإسلام، وأسلم الروح شهيدًا في سبيل ذلك.([١١]) وقد جاء هذا المبحث فيما يقرب من مائة صحيفة. ويضيف نامق كمال إلى هذه الأعمال

---

[8] (Zeynep Çelik ,Avrupa Şark'ı Bilmez, Eleşteril bir söylem, Istanbul 2020. s.25 .

[9] (Nâmık Kemal Hakkinda,Türk dili ve edebiyati enistitüsü neŞriyeti, no 2, Istanbul 1942. S:25,

[10] (Mithat Cemal Kuntay , Nâmık Kemal',1.cilt, s.843.

([١١]) نامق كمال، اوراق پريشان.سيرة أمير نوروز بك.

رسالة قانيجه([١٢]) التي كتبها إبان نفيه إلى ماغوسه، والتزم فيها اللغة السهلة، وتعد هذه الرسالة شاهدًا على حصار قانيجه.([١٣])

وقد صدرت كل سيرة من هذه السير منفردة من قبل ثم جمعها في هذا الكتاب، وقد طبع الكتاب ثلاث مرات في خمس سنوات.([١٤]) أما النسخة التي اعتمدت عليها هذه الدراسة فقد صدرت عام ١٨٧١، وقد عثرت عليها في مكتبة جامعة تورنتو الكندية تحت رقم K45E85,1871، وهي مكتوبة باللغة التركية في حروفها العربية، وهي نسخة بحالة جيدة، بيد أن بعض صفحاتها تخلو من الترقيم كما أنها تخلو من الصحيفة الأولى من مقدمة نامق كمال لهذا الكتاب، ومن الصحيفة الخامسة عشرة من مقالة دور إستيلا، وقد صدر نامق كمال كتاب أوراق پريشان بمقدمة استنهض فيها الهمم لعرض سير الأبطال الذين خدموا مجتمعاتهم ودينهم، وبكى محترق الفؤاد على جهل الناس ولا سيما الشباب بسير هؤلاء الأبطال.

د. مقدمة كتاب أوراق پريشان:

استهل نامق كمال كتابه أوراق بريشان بهذه المقدمة الرائقة التي أفصح فيها عن شيئين عظيمي الأهمية، أولهما الدافع الذي ساقه إلى تصنيف هذا الكتاب وهو استنهاض الهمم وبث الأمل بما استكنه من تاريخنا العظيم، وثانيهما غلبة الطابع الأدبي على كتابة نامق كمال التاريخ ، ومن أسف أن الصحيفة الأولى من المقدمة مفقودة في النسخة التي اعتمدت عليها في دراستي التي بين أيديكم، كما تعذر عليَّ أن أجدها في نسخة أصلية أخرى. يقول نامق كمال:

وكانوا على دراية تامة بكل ما تناولوه، وقد دققت في ضمير كل منتسب إلى الأدب، ألم أكن في هذا السبيل في معية أولئك الذين يكررون ما قاله الناس؟ وكلما تصورت الكثير من بدائع الأدب والفكر التي تبعث على الحيرة والدهشة التي لم تُتداول وتقرأ بين الشعب أرى أن هذه الأعمال الأدبية تفتقر إلى التكرار وإنعام النظر، ولا يمكن القول إن قلبي لا يبقى حزينًا في بقاء هذه الأشياء في طي النسيان. ولمن أنظر؟! فإن هذه الأعمال الأدبية تهب لقلبي العزم والرغبة مثل الابتسامات الحزينة التي ترتسم على الوجه الحزين. ولمن أنظر؟! فإن هذه الأعمال الأدبية تبعث على الرغبة في ابتسامة فكري كأنها بكاء محزون يظهر في عين السرور. وإذا قرأت إحداها فإنني أفكر مليًّا أن أبذل قصارى جهدي لإظهارها قبل أي شيء. وتبدو تلك الأعمال الأدبية ذكرى منتزعة من العمر ملقاة في صحراء العدم وقد تمنيت أن أعرضها على الخلائق أجمعين. وقد روعيت الدقة التامة في تنظيم وترتيب أجزاء هذا الكتاب الذي اخترت له اسم "أوراق مبعثرة". وظهرت في هذا المضمار الكثير من الكتابات الأدبية والتراجم ـ المنظومة والنثرية ـ والكتابات التي تتناول

([١٢]) قلعة قانيجه، إحدى القلاع المهمة في بلاد المجر، فتحها العثمانيون في عهد السلطان سليمان القانوني، عام ١٥٣٢م، ونظرًا لأهميتها القصوى تعرضت للعديد من الهجمات من ملوك المجر والنمسا، حاصرها الأمير فردناند من ١٠ سبتمبر إلى ١٧ نوفمبر ١٦٠١ إبان وجود حسن ترياق باشا مع حامية عثمانية صغيرة داخل القلعة، أبدى العثمانيون براعة فائقة رغم قلة عددهم في الدفاع عن القلعة وألحقوا بجيش فردناند خسائر فادحة مما اضطره إلى فك الحصار، تبوأ دفاع ترياقي حسن باشا عن قانيجه مع عدد قليل من القوات إلى جانبه مكانة سامقة في التاريخ العثماني، وأثار تداعيات كبيرة وأصبح موضوعًا للروايات. منها رواية نامق كمال "رسالة قانيجه". انظر نامق كمال، قانيژه محاصرسي ، مطبعة عامره، اسطنبول١٨٦٨. وانظر:

Mahmut AK, Tiryaki Hasan Paşa, İslam Ansiklopedisi, T.D.V, İslam Araştırmaları Merkezi, C.41 .5846.

([13]) (Nihad Sami BANARLI, Resimli Türk Edebiyat Tarihi, C.2, Istanbul 1983,s:25.

([١٤]) نامق كمال، أوراق پريشان، إسطنبول ١٨٧١. المقدمة.

التاريخ والمعارف السياسية. وآمل أن تكون هذه الكتابات الأدبية خلوًّا من النقائص وأن تكون متدثرة بالمروءة والهمم المشوقة لكل من يقرؤها من الشعب.([١٥])

هـ. كيف جسّد نامق كمال أفكاره في أبطال هذا الكتاب:

أعدّ نامق كمال السير الذاتية عن هؤلاء الأبطال الأربعة، وكتب سيرة ذاتية خامسة عن جلال الدين خوارزمشاه الذي حكم في المدة بين (12031 -1220)، إلا أنه آثر أن تكون على شاكلة مسرحية، يقول وصفي ماهر قوجه ترك: "أما البطل الخامس فهو جلال الدين خوارز مشاه الذي سعى سعيًّا حثيثًا لمواجهة الغزو المغولي. ولقد فضل نامق كمال الكتابة عن حياة جلال الدين خوارزمشاه على شاكلة مسرحية، وتظهر إحدى الرسائل المكتوبة إلى أبي الضيا توفيق التي نُشِرَت أن نامق كمال شرع في كتابه مسرحية جلال عقب انتهائه من كتابة السطور الأخيرة من كتاب "سيرة أمير نوروز بيك". ولقد تبوأت هذه المسرحية مكانة شديدة الخصوصية بين كتابات نامق كمال، وكان يفضلها دائمًا على مسرحياته الأُخرى، كما أن النقاد كانوا يشاركونه هذه الفكرة تقريبًا"[(١٦)]. ومن الممكن أن تُعد مسرحية جلال القسمَ الأول من سيرة "أمير نوروز بك" من ناحية موضوعها. ويُحتمل أن نامق كمال أراد أن يشرح أولًا اجتياح المغول للعالم الإسلامي موضحًا فاجعتهم على الأمة، وبعد ذلك يفصل القولَ في هزيمة قوى البغي والتدمير على يد الإيمان والفكر عند حديثه عن السيرة الذاتية لأمير نوروز بك، فصاغ دراما عن أولهما "جلال الدين خوارزمشاه" بعد أن كتب عن ثانيهما "أمير نوروز بيك" على شاكلة سيرة ذاتية." [(١٧)] وعلى كل حال فإن الأقوال التي تبشر في المشهد الأخير من مسرحية جلال الدين باعتناق المغول الإسلام وحياة نوروز بيك بعد وصيته التي أوصى فيها بالعمل لتحقيق هذا تعد نتيجةً أو قسمًا ثانيًا من تلقاء نفسه لهذه المسرحية.([١٨])

ويختار نامق كمال بدقة متناهية أبطاله الذين يرتبطون بالتاريخ أو يتحدثون عنه، فقد تناول في هاتين السيرتين (أمير نوروز بك وجلال الدين خوارزمشاه) أربعة أحداث مهمة أعقبت غزو الأتراك الأناضولَ، وربما يعد حكم جلال أثقل جزء وأهمه في هذه المجموعة التي تكونت عبر الزمان. وعلى أي حال فإن موضوع هذه المسرحية اللائق بحاكم شجاع منكود الحظ متوافق مع فكر نامق كمال عن البطولة، والوحدة، وحب العمل، والجهاد، والتيار الإسلامي، وبعض القضايا الأخلاقية والاجتماعية.([١٩])

ويؤكد على ذلك أحمد حمدي طانبينار، فيقول: "ومن نافلة القول أن نقول إن نامق كمال رأى في هؤلاء الأبطال الأربعة إضافة إلى خامسهم جلال الدين خوارزمشاه أفكاره؛ فصلاح الدين الأيوبي الذي واجه غزو الصليبيين بجهاده هو بطل وحدة الإسلام، وهي أهم الأفكار التي نادى بها نامق كمال، ويرى أيضًا أن عبقرية محمد الفاتح تَوَّجت جميع مكاسب المد الإسلامي بفتح القسطنطينية وجمع المسلمين في وطن واحد، وأن السلطان سليم الأول بطل وحدة الإسلام بنضاله ضد الصفويين، وفتحه مصر والجزيرة العربية، ونقله الخلافة الإسلامية إلى إسطنبول، وبهذه الصورة ينتقل نامق كمال بعد هؤلاء الأبطال الثلاثة الذي أكد أولهم نصر الشرق في مواجهته العظيمة مع الغرب، وأسس ثانيهم وطنًا واحدًا للمسلمين، وحدَّد ثالثهم هدفًا ومثالًا يُحْتذى به ينتقلُ إلى غزو المغول الذي سار

([١٥]) نامق كمال، أوراق پريشان، إسطنبول ١٨٧١،صـ ١.

[(16)] Vasfi Mahir Koca Türk, Türk edebiyati tarihi, Ankara 1964,s:650.

[(17)]Mustafa Nihad ÖZÖN, Metinlerle Türk edebiyati tarihi, Istanbul,1934.s:304.

([18]) Mithat Cemal Kuntay , Nâmık Kemal',1.cilt, s.844

([19]) Ibnülemin mahmud kemal Inal,A,G,E , s. 59.

في الشرق موازيًا لغزو الصليبيين، فيجد في أمير نوروز بك الذي عمل على إدخال المغول في الإسلام، وتحويلهم من قوة هدم إلى قوة خير وبناء لنشر الإسلام المثال الرابع، أما البطل الخامس فهو جلال الدين خوارز مشاه الذي سعى سعيًا حثيثًا لمواجهة هذا الغزو المغولي."([٢٠])

ومما تجدر الإشارة إليه أن نامق كمال لم يكن مصلحًا اجتماعيّا او مفكرًا سياسيًا فحسب، وإنما يُعدُّ واحدًا من أكثر المهتمين بالأوضاع الاقتصادية بين كتاب حركة التنظيمات؛ فقد عاد بضع مرات مثل جيله إلى إثارة قضية الامتيازات الأجنبية. فضلا عن أنه يوصي أيضًا بإجراءات النهوض الاقتصادي، ويتحدث عن ضرورة سن قانون لحماية الدولة في القضايا الاقتصادية،[٢١] وكان نامق كمال أحيانًا ضد الحرية التي هي محبوبة الضمير، إذ يقول: "لا جرم أن جميع المنافع تكمن في الحرية، إذ إن الحرية هي مقتضى الطبيعة، بيد أن حُرية التجارة قد أضرت في الوقت ذاته بالعثمانيين لما تنطوي عليه من بعض العيوب والنقائص."(٢٢).

الفصل الثاني:

المبحث الأول: مقالة "دور إستيلا"

صدرت مقالة نامق كمال دور إستيلا في صحيفة "تصوير الأفكار" عام 1867م، ثمّ صدّر نامق كمال بها كتابه أوراق بريشان، وقد حدد فيها نامق كمال زمان ومكان وموضوع مقالته، فهي تتناول تاريخ العثمانيين في قرنين من الزمان وفي ملتقى قارتين، وتمنى من سويداء قلبه أن يسلك الأدباء مسلكه في نشر مثل هذه الأعمال الأدبية المشوقة، يقول نامق كمال في المقدمة التي صاغها لهذه المقالة:

بين يديكم رسالة عصر الرفعة، - كنت قد طبعتها من قبل مرة واحدة في إصدارات مجلة تصوير الأفكار- وقد تشجعت على إعادة نشرها بعد تنقيحها. وكنت أظن أن الرغبة في قراءتها قليلة بيد أن الأمل قدّر طباعة هذا النتاج الأدبي المتواضع ثلاث مرات في خمس سنوات حتى ذاعت بين الشعب الذي كان مفتقرًا لمثل هذا النتاج الأدبي. وألتمس العذر في حرمان هذه الرسالة من حسن التنسيق، وآمل أن أكتب بدايتها على لوحة من القصدير تحكي الأحداث العظيمة في تاريخنا خلال قرنين عظيمين وفي ملتقى قارتين عظيمتين. وإنه لمن عظيم الشرف أن تظهر الرغبة في رؤية الخطوات المتدثرة بالمروءة والهمم المشوقة من أدباء العصر للشروع في نشر مثل هذا العمل الأدبي.([٢٣])

شرع نامق كمال في مقالته بالحديث عن إشراق نور الإسلام في بلاد العرب وأفول نجم الصليبيين جرّاء الظلم الذي قوّض أركان دولتهم، وهجرة العثمانيين إبان غزو المغول شرق العالم الإسلامي، ويزعم أن العثمانيين أسسوا دولة في ذلك الإبان، وأنهم واجهوا أعتى الصدمات التي لم تعوقهم عن تأسيس دولتهم وعن إصلاح البلاد التي أسسوا دولتهم عليها. ويتضح مدى مبالغة نامق كمال في هذا السبيل من ناحية وخلطه الأحداث التاريخية من ناحية أخرى، ويتجلى تداخل الأحداث في حديثه عن هجرة العثمانيين من الشرق، فمما هو جدير بالذكر أن الأقوام التركية قد هاجرت من الشرق وأقاموا تجمعات سكنية في الأماكن التي هاجروا فيها، و لم يكن اسم العثمانيين قد ظهر في الآفاق بعد، فقد كانت هذه الهجرات لأقوام تركية

)[20] (Ahmet KAPAKLI, Türk edebiyatı, C.3, Baskı. Acar Matbaacılık A.Ş, İstanbul 1997,s:115.

)[21] (Ziyad Eddin Fahri oğlu, Nâmık Kemal' ve ideolojisi,ankara1939,s:25.

([٢٣]) نامق كمال أوراق پريشان، إسطنبول ١٨٧١م، ص: مقدمة مقالة دور استيلا، ص٢.

الأصل قبل ظهور العثمانيين، يقول أحمد حمدي طانبينار في هذا الصدد : ولا ريب أن دينَ الإسلام لم يَجِد التركَ في عصورهم الأولى في مناطق محددة مثل الإيرانيين، كما أن حروبهم لم تكن تضع أوزارها؛ فقد أخذ الترك على عاتقهم نشر الإسلام عن طريق المنظمات السياسية الكثيرة التنقل، والاتحادات الكبيرة التي صنعت تاريخ المسلمين في آسيا الوسطى مع انهمار الجماعات التركية المتدفقة من آسيا الوسطى المتجهة نحو الغرب مستمرةً زهاء أربعة قرون من الزمان، وأخذ الترك يتنقلون دائمًا بين مناطق جغرافية متنوعة في أوقات متباينة حاملين بين جوانحهم الدين الإسلامي الذي يُعَدُّ نقطة الارتكاز في ثقافتهم. ولم يكد الترك يؤسسون مراكزَ سياسيةً ثقافيةً كبيرةً ويتوافقون مع أوضاع البيئة المتباينة التي يعيشون فيها حتى كادت هذه المراكز أن تكون قارة مستوطنة، أومعبرًا رئيسًا تسلكه كل الجماعات والتشكيلات، وأخذ الترك الذي كان الدين قطب الرحى في ثقافتهم ينتقلون بين مناطق جغرافية متغايرة في أزمنة مختلفة حتى أضحت هذه المراكز حقيقة من الحقائق التاريخية الكبيرة التي يلزم البحث بطريقة مُثلى عن تأثيرها في الحالة النفسية للشعب التركي، وفي تاريخ أدبنا ولغتنا مثلما كان في تاريخ ديننا ومذاهبنا، وفي العلاقات التي كانت تربط هذه القارة المُستوطَنة بالثقافة المجاورة والأهالي المحليين. ([٢٤]) بيد أن نامق كمال يخلط بين العثماني والتركي، فهو كما يبدو يعدُّ كل تركي عثمانيًا. يقول نامق كمال:

في الوقت الذي أشرق فيه الحظ الميمون للفرق الإسلامية التي انتشرت في جنبات العالم مثل نور السحر في مدة وجيزة من إشراق نور الإسلام في بلاد العرب كان المتعصبون من أهل الصليب يستعدون للأفول لاستغراقهم في الظلم ولاختلال أركان ملكهم من كل جانب. وفي الوقت التي اجتاحت فيه جحافل المغول المعمورة وانهمروا كسيل البلاء من بلاد ماوراء النهر ووصلوا إلى نهر الأردن استقر عدة آلاف من آل عثمان وتابعيهم الذين انفصلوا عن عائلاتهم إبان غزو المغول مستقرين في أنحاء مخضوضرة. ولقد تأسس هذا البناء العظيم الذي عهدناه بفضل الجهود الحثيثة والسعي الذي صرفوه في إعمار البلاد وتدمير قوى الأعداء ومواجهة أعتى الصدمات في العالم منذ تأسيس هذه الدولة قبل ستة قرون.([٢٥])

تحدث نامق كمال عرضًا عن الإمارات التركية التي نشأت في الأناضول على أنقاض الدولة السلجوقية ونزاعها مع الدولة العثمانية الناشئة ومحاولتهم إيقاف نمو شجرتها، بيد أن شجرة العثمانيين ضربت في الأرض جذورها وامتدت أغصانها ولا يتسنى لأي قوة أن تعوق سبيلها. ولم يذكر نامق كمال اسم إمارة من إمارات الأناضول على الرغم من تعدد الإمارات التركمانية التي نشأت في الأناضول بعد انهيار الدولة السلجوقية، فكان القرمانيون والكرميانيون والإيلخانيون وبنو منتشه وبنو آيدن وبنو صاروخان وبنو قره سي وأق قويونلو وقره قويونلو والقبيلة الذهبية وغيرهم، وبقيت بعض هذه الإمارات حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي في عصر السلطان محمد الفاتح. ([٢٦])

وفي الحقيقة فإنهم كما بذلوا جهدهم لتدمير أعدائهم فإنهم صرفوا جزء من طاقتهم لإعمار البلاد التي فتحوها، و لم تكن إمارات ملوك الطوائف التي تشكلت على أنقاض الدولة السلجوقية في الأناضول تمتلك القدرة التي تمكنها من تضييق اتساع شجرة هذه العائلة التي كانت في طور النشوء والنماء على دماء الأعداء الذين أشهروا سيوفهم عليها، و لم تقو على الوقوف في وجه هجمات هذه القوة الخارقة التي كانت حديثة النشأة امبراطورية الشرق التي أفل نجمها واضمحلت قواها واندرست. وإذا كان العثمانيون قد أسسوا

([24]) أحمد حمدي طانبينار، تاريخ الأدب التركي في القرن التاسع عشر ، ص:٢.

([٢٥]) نامق كمال أوراق پريشان، مقالة دور استيلا ص:٣،٤.

([26]) M. Fuad Köprülü, Osmanlı Devleti'nin Kuruluşu, Ankara 1959, s. 35-39.

دولـة حينًـا مـن الـدهر فإنـه لـم تتعـرض أي قلعـة أو خنـدق مجـاور لهـم لهجـوم أو قتـال وبقيـت مصـونة مـن التعرض لأذى أو سفك دم منهم. (٢٧)

يسوق نامق كمال في الفقرة الآتية الأغراض التي دفعت العثمانيين إلى القتال إبان نشاة دولتهم وتوسعها، فالقتال لم يكن للتخريب والتدمير وإنما كان دفاعًا عن النفس وطلبًا للمغانم والاسترقاق، وكان هذا السبيل المثلى في تعمير الممالك ومقابلة الزيادة في الحيوانات وجبر أضرار الطبيعة في الثروات والأنفس.

أما القتال فكانت القاعدة الأساس في الحرب هي الغنيمة والاسترقاق وليس التخريب كما في زماننا، وكان هذا أعظم الوسائط في إعمار الممالك ومقابلة الزيادة في الحيوانات وجبر أضرار الطبيعة في الثروات والأنفس. وعلى هذا النحو كانت الحروب في هذا الزمان، أما السلطان عثمان غازي الذي صادف عصره القرن السابع الهجري فقد رفع راية الاستقلال بعد أن انفرد بحكم الإمارة حينًا من الدهر. وإذا أنعمنا النظر إلى هيئة لواء هذه السلطنة فهي تدل على أن ثمة أحداثا وتغييرات عظيمة سوف تحدث في الأنحاء مثل أطوار تكون الهلال ولربما كانت بمنزلة براعة الاستهلال لشجاعة سيف الأمة وبوارقها التي تنثر فوق رؤس الأعداء.([٢٨])

تحدث نامق كمال عن عثمان بن أرطغرل في جملة واحدة، ولم يذكر اسم ارطغرل لا تصريحًا ولا تلميحًا، ويبدو واضحا للعيان أن كلام نامق كمال يقطر مدحًا لكل من هو عثماني، فكلمة عثماني عنده تعني الشجاعة والمروءة. ولا ريب أن حديث نامق كمال عن تأسيس دولة عثمانية على يد عثمان بن أرطغرل يعد لونًا من ألوان المبالغة، لقد حكم عثمان بعد وفاة أبيه أرطغرل إمارة تابعة للسلطان السلجوقي في قونيه، وليس دولة بالمفهوم المعروف كما ذكر نامق كمال.

ولقد استطاع هذا الحاكم البطل في معية بضعة آلاف من جنده تأسيس دولة عظيمة تكون أهلا لأن تحكم الدنيا، ولقد بقي اسمه إلى الأبد مصدر فخر وإعزاز لأمتنا. وإذا قيل إن كلمة عثماني تنسب إليه تشريفًا واحترامًا فإنه يتبادر إلى الذهن صفتان تتحلى بهما الفطرة الإنسانية السليمة وهما الشجاعة والمروءة.([٢٩])

وخلف عثمان ابنه أورخان، (١٢٨١ ـ ١٣٦٢م)، وقد فتح مدينة بورصه دون قتال عام ١٣٢٦ م بعد حصار دام قرابة عشر سنوات واتخذها عاصمة للعثمانيين ([٣٠])، ولم يذكر نامق كمال تاريخ حصارها ولا تاريخ فتحها. كما أطلق نامق كمال لقب السلطان على أورخان، والحق أنه لم يلقب بهذا اللقب في حياته، على الرغم من فتحه مدينة بورصه، وتوسيع رقعة الدولة العثمانية لتشمل أجزاء من أوروبا الشرقية،([٣١]) يقول نامق كمال:

([٢٧]) نامق كمال أوراق پريشان، مقالة دور استيلا ص: ٥.
([٢٨]) نامق كمال أوراق پريشان، مقالة دور استيلا ص: ٦
([29]) نامق كمال أوراق پريشان، مقالة دور استيلا ص: ٦
([30]) M. Fuad Köprülü, Osmanlı Devleti'nin Kuruluşu, s:85.
([31]) İsmail Hakkı UZUNÇARŞILI, Osmanlı Tarihi, C.3, 6. Bas, Türk Tarihi kurumu.Ankara1997,s:85.

أما خليفته السلطان أورخان فقد جرد حملة من أجل فتح مدينة بورصه من أعلاها وأسفلها، واتخذها مقرًّا لسلطنته وحكومته التي كانت في حال استنفار تام. وقد صرف السلطان أورخان جهده لتوسيع الدولة الإسلامية.([٣٢])

يتحدث نامق كمال عن تأسيس فرقة الإنكشارية دون أن يجزم القول في أن تأسيس تلك الفرقة كان في عصر السلطان أورخان، وهو بذلك يوافق آراء كبار المؤرخين في هذا السبيل، كما تحدث عن الخدمات العظيمة التي أسدتها هذه الفرقة للدولة العثمانية. والمزايا التي اتصفت بها من الشجاعة والإقدام. يقول نامق كمال:

أما جنده فقد اتصفوا بكثير من الفضائل الذاتية والحنكة العسكرية. وحيثما ولّى الجنود العثمانيون وجوههم فتحوا أبواب النصر بغتة. ولربما كان السلطان أورخان أول من مهد السبيل لتأسيس فرقة الإنكشارية، ولقد بذلت هذه الفرقة جهودا فائقة في توسيع رقعة الأمة الحاكمة وحماية أجيالها، واتخذت في سبيل ذلك مجموعة من الأجراءات المُحكمة.([٣٣])

وكان لخير الدين باشا حظًا من الذكر في مقالة نامق كمال التي قصرها على السلاطين العثمانيين، ولم يذكر فيها سوى شخصيتي خير الدين باشا وخير الدين بربروس(١٤٦٦م ـ ١٥٤٦م) **الذي سيذكره فيما بعد، ويقصد نامق كمال جندرلي خليل خير الدين باشا الصدر الأعظم الخامس في الدولة العثمانية، وثاني صدر أعظم في عهد السلطان مراد الأول، دامت صدارته ثلاثًا وعشرين سنة، ما بين(١٣٦٤ ـ ١٣٨٧م)، وهو أول من حاز لقب الصدر الأعظم، وكان من تولوا أمر الصدارة من قبله ينادون بأسماء مختلفة.([٣٤]) يقول نامق كمال:**

وحاز من بعد ذلك خير الدين باشا الذي بلغ مقام الصدارة على رتبة أستاذ الجميع بخبراته الواسعة في فن الإدارة والحكمة التي تحلت بها حكومته التي بدأت من طلب العلم حتى مركز الإدارة. وعلى هذا النحو فقد اتحد هذان العاملان (فرقة الإنكشارية، خير الدين باشا) على نحو يستطيع أن يقاوم أعتى الزلازل ببنية متينة متماسكة متآلفة كانت خير عون للسلطان ذي الهمة العالية.([٣٥])

وخلفه ابنه السلطان مراد الأول(١٣٢٦ ـ ١٣٨٩م) وهو أول من استحدث أنظمة إدارية في الدولة لم تكن معهودة من قبل، مثل منصب قاضي العسكر، وأول من وطّن العثمانيين في أوروبا الشرقية، وقد فتح أدرنة واتخذها عاصمة للعثمانيين.([٣٦]) لم يذكر نامق كمال شيئًا من ذلك، وتحدث إجمالًا بقوله:

وإذا كان السلطان مراد خليفة السلطان أورخان الثالثَ في ترتيب سلاطين آل عثمان فإنه جدير به أن يقدم على الجميع في أمر تنظيم السلطنة وترتيبها؛ فلقد تجول بخيله في صحراء الروميلي وأشرقت أنحاء أوروبا الشرقية بنور الجهاد، وتمكن هذا الغازي الذي ولي أمور الحكم في السابعة والثلاثين من عمره من قهر

([٣٢]) نامق كمال أوراق پريشان، مقالة دور استيلا ص: ٧.

([٣٣]) نامق كمال أوراق پريشان، مقالة دور استيلا ص: ٧.

([34]) İsmail Hakkı Uzunçarşılı, Çandarlı vazir ailesi, Türk Tarih kurumu, Ankara ,1991 ,s:18

([٣٥]) نامق كمال أوراق پريشان، مقالة دور استيلا ص: ٧.

([٣٦])يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سليمان،ج١،منشورات فيصل للتمويل، استانبول ١٩٨٨،ص: ٨٥.

أعلى الألوية وأكبرها بفضل همته العالية التي لا قبل للجبال الرواسي بتحملها وتوسيع الحدود الإسلامية لتصل إلى حدود البلقان الكبير المشتعل بالصراعات.([٣٧])

وتحدث نامق كمال عن فتوحات السلطان مراد الأول في شرق أوروبا واستشهاده في ساحة الوغى، وبسالة الأمير يلدرم بيازيد (١٣٤٥ ـ ١٤٠٣م) في مواجهة جموع الصرب والبلغار والمجريين.

وفي الوقت ذاته اتفق الصرب والبلغار والمجريون ومن تبعهم من أرباب الصليب اتفاقًا وجوديًا على هيئة الأقانيم الثلاثة يهدف إلى تشتيت وحدة المسلمين المجاهدين الذين استلوا سيوفهم من أجل عقيدة التوحيد، والتقى الجمعان في قوسوه، ولقد أمّن النصر لنا عزيمة الأمير يلدرم بيازيد القوي الشكيمة الفريد المآثر، وتلألأ نصره على جموع الأعداء الكثيفة وأفواجها. بيد أن جنديًّا من جنود الأعداء مزق الحقد فؤاده من نصر جند الإسلام قد احتال لطعن الإسلام في شخص السلطان مراد، واستشهد السلطان الغازي مراد الأول في أرض المعركة، وكانوا يبتغون من وراء ذلك إفناء مؤسساتنا وإحياء دولتهم. ولربما تعد كل قبضة تراب من دولتنا جزءًا من هذا الشهيد الذي عرف بورعه وتدينه. أما العدو فقد أيقن أنه ليس ثمة حيلة ناجعة سوى التأسُّف للعثمانيين المكلومين عن هذه الخيانة، وهكذا قضى السلطان مراد نحبه شهيدًا، وخلفه ابنه يلدرم بيازيد. وكان هجوم السلطان يلدرم بيازيد على أعدائه كصاعقة البلاء، فسوى بنيان مقاومتهم بالأرض، وضم إلى مملكته بلغاريا ومقدونيا، وتعقب فلولهم من الشمال إلى الجنوب كالصاعقة المُحرقة، وامتدت فتوحاته إلى ساحل نهر طونه كالسيل الهادر بعد أن مزج جزءًا من العالم الإسلامي الذي كان في حال متفرقة بالعالم العثماني، وقضى على الحلف الذي وحّد بين المجريين وفرنسا ومن تبعهم من الصليبيين. حتى إنه ضيق كثيرًا على حكام القسطنطينية عند مروره وأجبرهم على دفع جزية سنوية مقدّرة في صورة نقدية.([٣٨])

ذكر نامق كمال عرضًا لا تصريحًا معركة أنقره التي تعد من أهم المعارك في القرون الوسطى، وانهزم فيها العثمانيون أمام تيمورلنك عام ١٤٠٢م وأُسر فيها السلطان يلدرم بيازيد:

بيد أن يلدرم بيازيد لم يجد من ينوب عنه في كفائته عندما ترك عاصمته وانطلق للفتوحات فتمردت القلاع التي كانت على حدود الدولة العثمانية، واختلت إدارة شئون البلاد، وجد تيمورلنك السبيل ممهدًا للسير كالصاعقة نحو الدولة العثمانية، ولم يكن بعيدًا عن المحتمل أن ينقطع اتصال يلدرم وجنده بدولته لفرط قوة تيمورلنك، وبمجرد أن التحمت قوات يلدرم بقوات تيمورلنك خارت عزيمة قوات يلدرم أمام هذه العاصفة ولم يتسن لهم الصمود فانهزموا.([٣٩])

ولا ريب أن الخيانة كانت السبب الرئيس في هزيمة العثمانيين؛ فقد انسحبت ميمنة الجيش وولت الأدبار، بينما انضمت ميسرة جيش بيازيد إلى قوات تيمورلنك، وكانوا قد أضمروا الخيانة من قبل التحام الجيشين. وعلى الرغم من ذلك وحّد بيازيد قوات الجيش العثماني المتبقية في الوسط وأصبح فرقة واحدة في مواجهة جيش تيمورلنك، ولم يصمد في القتال إلا قلب الجيش العثماني بقيادة السلطان بايزيد الأول

([٣٧]) نامق كمال أوراق پريشان،مقالة دور استيلا ص: ٨، ٩.
([٣٨]) نامق كمال أوراق پريشان، مقالة دور استيلا ص: ١٠.
([٣٩]) نامق كمال أوراق پريشان، مقالة دور استيلا ص: ١٠.

في نحو خمسة آلاف فارس من الإنكشارية وفرسان السپاهية، واستمر في القتال حتى نهاية المعركة.([٤٠]) لم يذكر نامق كمال هذه الخيانات، واكتفى بطرح الأسئلة التي تحمل في طياتها الدّفاع عن العثمانيين.

وإذا كان تيمورلنك قد أسر السلطان يلدرم بيازيد ووضعه رهن الرقابة الصارمة فإن هذا لا يقلل من شأن السلطان يلدرم بيازيد، ولا يقدح في سيرته عدم قدرته على الوقوف في وجه تيمور؛ فإن العالم شهد وقوع العديد من هذه الأحداث الجسام ولاسيما وقت وقوع الكوارث، ويبدو في الظاهر أن هذا كان بمحض إرادة الإنسان، لكن الحقيقة أن هذه الأمور قدرية مثل أعراض المرض الذي لا دخل للإنسان فيه، ولربما يُضطرالإنسان أحيانًا إلى الأسوأ. ومن كان في العالم آنذاك مثل العثمانيين؟ فإن هذا القائد الشجاع الذي قهر أعداءه بعلو همته وكمال شجاعته قد انقاد لحكمة سائدة عندما رأى جيشًا مسلحًا منتظمًا شاهرًا سيفه تحت لواء الاستقلال وفي رئاسة هذه الأمة الشجاعة التي ألفت حينًا من الدهر قهر أعدائها بعلو همتها وكمال شجاعتها. وهل ثمة حكيم يخضع طواعية لتيمور؟ وهل جأرت أي من العشائر العثمانية بالشكاية لتيمور من حكم العثمانيين؟ ([٤١])

يذكر نامق كمال أن السلب والنهب كان الهدف الرئيس لقوات تيمورلنك.

وكان تيمور يظن أنه لن يتسن لأحد أن يصدّ هجومه، ولربما ينضوي العثمانيون تحت لوائه ويُعلنون طاعتهم له، وكم كانت الممالك العثمانية زاخرة بالثروات والخيرات التي يغنمها، وكان يظن واهمًا أن الدولة العثمانية جمعاء ستجبر على إعلان طاعتها للسفلة الذين كان السلب والنهب أسمى غاياتهم.([٤٢])

لم يتحدث نامق كمال إلا في جملة واحدة عن "المرحلة العثمانية" أو ما يسمى "نزاع الأمراء" التي كانت من أشد أوقات العثمانيين حرجًا، وقد دامت قرابة عشر سنوات، وأتبعها بالحديث عن السلطان محمد الأول (١٣٨٦ ـ ١٤٢١م) المؤسس الثاني للدولة العثمانية، كما يراه نامق كمال:

وعلى الرغم من هذا فقد أفاد تيمور أعظم إفادة من الهزيمة التي حاقت بالعثمانيين، وفضلا عن هذا فقد انتفع دون جهد من الثمار والخيول والأموال والأماكن التي شهدت طفرة في الزراعات، لأنه كما زادت الانتصارات في عصر السلطان بيازيد فقد زاد عدد القتلى كذلك، وخرجت أصول الإدارة عن طبيعتها، وعلى هذا النحو كان لهذه الهزيمة دور في اتجاه الحكومة نحو الاعتدال.

وقد دبّ الشقاق بين الأمراء أبناء بيازيد بعد فقد أبيهم وفقًا لأعمارهم ومشاربهم ورجاحة عقولهم وهوس كل واحد منهم في الاستقلال بالسلطنة، ولم ينالوا جميعًا من ذلك الشقاق شيئًا سوى خيبة الأمل، ويعدُّ محمد الأول الذي كان أصغر أبناء يلدرم بيازيد سنًا وأكبرهم عقلًا ولباقة الباني الثاني للدولة العثمانية؛ فقد عسكر بجزء من قواته عند جبال أماسيا، وكان يعرف طبيعة الأرض التي تطؤها سنابك خيله ويدرك حاجتهم العاجلة، وامتحنه الحظ في ميدان الوغى بعقل راجح وفتوة ألفت الجلاد بالسيف في ساحات القتال، واستطاع في زمن وجيز أن يضم في قبضته الإمارات العثمانية التي تفرقت بين أعدائه وإخوته وضم تحت لوائه بلاد البوسنة والصرب. ولقد بدا في ذلك الزمان تألق نجم العثمانيين، وعلت رايتهم بانتصارات دولتهم في البر

)[40] (Ilyas Karademir ,Osmanılı padişahları Ansiklopedisi,3.cilt. s:285.

([٤١]) نامق كمال أوراق پريشان، مقالة دور استيلا ص: ١٠.
([٤٢])نامق كمال أوراق پريشان، مقالة دور استيلا ص: ١١.

والبحر واستقلالها حتى صارت دولة القرن. ومما هو جدير بالذكر أننا إذا أتينا على ذكر هذه المرحلة من عصر الدولة العثمانية فإنه لايتسنى لأي أحد أيًا كان أو أي دولة أن تتحمل هذه الصدمة التي أدهشت الكائنات طرًّا ووقفت الحكومات إزاءها صاغرة حسيرة. حتى إن بعض الحكماء الذين سبروا غور أحوال الأمم وأعملوا النظر في عللها كانوا يتصورون أن هذا العمر طبيعي للأمم لقلة الخبرة، وهذا الخيال ينأى عن الحقيقة فإن آل عثمان أول من أثبت أن أي وجود سياسي يعد مظهرًا على الحياة الدائمة، وكان السلطان محمد خان المقدمة المُثلى لسلسلة الأدلة والبراهين. (٤٣)

أما السلطان مراد الثاني (١٤٠٤- ١٤٥١م) فهو الحاكم الذي جمع بين همة الحكّام وقناعة الحكماء، وفي رحاب السلطان مراد الثاني اتسعت فتوحات الدولة العثمانية في أوروبا الشرقية، فاستولى على مدينة سالونيك عام ١٤٣٠م،وهزم التحالف الأوروبي عام ١٤٤٨م في فارنا واستعاد السيطرة على صربيا(٤٤)، يقول نامق كمال:

ولقد أظهر ابنه السلطان مراد الثاني في أيام حكمه قدرته على الجمع بين متضادين؛ إذ جمع بين هِمّة الحُكّام وقناعة الحكماء، فقد انتشر في عصره من ناحية حكم القرآن في إقليم موره الذي كان مركز الحكمة اليونانية وقطب رحاها، ومن ناحية أخرى واصلت همته الجهاد بالسيف، وبفضل الهمة التي لا مثيل لها فُرضت الجزية على إمارات البوسنة والأرناؤوط. وبعد ذلك ولّى السلطان مراد الثاني وجه عزيمته من مجاهدة الأعداء إلى مجاهدة النفس، متنازلًا طواعية لابنه محمد الثاني عن تاج السلطنة والعرش الذي جاهد أبوه من أجل الحفاظ عليه من إخوته الذين ناصبوه العداء، فانزوى إلى حياة العزلة والعبادة، وقد أراد الأعداء اغتنام فرصة حداثة سن محمد خان.(٤٥)

فُقدت الصحيفة رقم ١٥ من الكتاب، وكان نامق كمال يتحدث فيها عن محمد الفاتح (١٤٣٢ -١٤٨١م) والنصر العظيم الذي توجه بفتح القسطنطينية: ومما ذكره عن محمد الفاتح:

أما الحمية الكاملة فقد تجلت في رغبته في انصياع الملوك لحسامه، وانصياعهم لأمره بتقبيل يد العلماء. أما كمال هيبته فتكمن في تنازله عن لقب فاتح اللائق بالسلطان ورضاه عن أن يناديه أستاذه باسم محمد مجردًا، وخير برهان على تربيته المعرفية إجادته ست لغات وفهمه فنون شتى وحله غوامض المسائل.(٤٦)

وأضحت اسطنبول من فورها مركز أمتنا في حماية دين محمد وسيف محمد. ولقد سيّر هذا الملك العظيم السفن على اليابسة لإنجاز هذا الفتح المبين، وكان في طليعة الجنود الذين فتحوا اسطنبول، وقهر أعداءه أينما نزلوا شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا. فلما ولى وجهه شطر الشرق قضى في إحدى حملاته على الحكومة التي تأسست في مدينة طربزون من بقايا امبراطورية الشرق. وأجبر في إحدى حملاته أوزون حسن(٤٧) الذي عانده في ميدان الوغى على الانقياد لأوامر سيفه. وعندما توجه تلقاء الغرب أوصل الحدود العثمانية برًا حتى داخل موره وسواحل فينيسيا. أما بحرًا فقد ضم إلى دولته أكبر جزر بحر سعيد، وكانت مآثر فتوحاته في الشمال تمتد إلى أكثر أراضي الكروات والبوسنة والصرب وأفلاق وبوغدان التي شقت عصا

---

(٤٣) نامق كمال أوراق پريشان،مقالة دور استيلا ص: ١٢.

(44) (M. Fuad Köprülü, Osmanlı Devleti'nin Kuruluşu, s:١١٥.

(٤٥) نامق كمال أوراق پريشان، مقالة دور استيلا ص: ١٣.

(٤٦) نامق كمال أوراق پريشان، مقالة دور استيلا ص: ١٤.

(٤٧) أوزون حسن (١٤٢٣_ ١٤٧٨) أحد أكبر أمراء دولة أق قويونلو التي تأسست في الأناضول بعد انهيار الدولة السلجوقية، وقد ضمتها الدولة العثمانية لها في عهد محمد الفاتح. انظر أحمد بن يوسف القرماني، أخبار الدول وآثار الأول، القاهرة، د.ت، ص: ٣٣٦.

الطاعة بعد أن كانت تدفع الجزية في عهد السلطان يلدرم بيازيد. وقد هاجم جنوب الأناضول ووحد الأناضول الإسلامي بقضائه على ماتبقى من ملوك الطوائف من القرمانيين.وارتجت من صدمات هجماته إيطاليا وارتبكت وأخافت شهرة انتصاراته وصداها ملك مصر ، وتعد سلطنته أكثر أزمنة الدولة العثمانية ازدهارًا في المعارف والعلوم.([٤٨])

تحدث نامق كمال في جملتين عن النزاع الذي نشب بين ابني محمد الفاتح، بيازيد الثاني (١٤٤٧ -١٥١٢) وجم (١٤٥٩- ١٤٩٥م):

وورث السلطان بيازيد الثاني أباه السلطان محمد الفاتح، ولما أعلن أخوه السلطان جم استقلاله عن حكم السلطنة عرّض الدولة لمصائب لا تحصى ولا تعد، فقد تحارب الفريقان كثيرًا في معية أتباع من كل من مصر والبوسنة وكرواتيا وبوغدان، وكان النصر حليف السلطان بيازيد الثاني، ولا ريب أن الدولة فقدت جرّاء هذه النزاعات هيبتها القديمة وسؤددها التليد، وهذه حقيقة لا يمكن إخفاؤها.([٤٩])

ويعد السلطان سليم الأول (١٤٧٠- ١٥٢٠) أحب السلاطين العثمانيين إلى نامق كمال، ويذكر ذلك تصريحًا، وينحاز إليه في أحقيته بالعرش على الرغم من كونه الابن الأصغر للسلطان بيازيد الثاني:

ولما ضعف السلطان بيازيد الثاني أمام رغبته في ترك الحكم والانزواء للعبادة والتنازل لابنه أحمد لم يرض عن ذلك ابنه الأصغر سليم، وأبدى معارضته هذا العطاء غير اللائق، وأنه أجدر بالتاج وأحق بالترتيب لمهارته الخارقة. وإذا وقفنا على أجزاء العالم المتزلزلة والجبال المحترقة فلا نسلم أمور الملك والأخطار تحدق بالأمة من كل جانب.([٥٠])

ثم شرع نامق كمال في تعداد مزاياه وخصاله التي عدّ القسوة منها خصلة حميدة استدعتها الظروف واقتضتها الضرورة في زمن كان الأعداء يتربصون بالدولة من كل جانب، فهو السلطان الصارم الذي يعرف متى يستل سيفه، وهو الحكيم الذي يضع الأمور في نصابها، يقول نامق كمال:

وإن أعظم رجل في الدولة العثمانية هو السلطان سليم الأول، فقد تحمل حملًا ثقيلًا تنوء به طبيعة البشر في زمان ألف فيه قدره العظيم هذا السمو والرقي، وإن هذا البطل الذي فاض مثل البحار بوافر قدرته كان ذكر اسمه كافيًا لضبط استقامة من تسول له نفسه التمرد على الدولة، بل إن المداهنين الذين كانوا يذعنون لطاعته مختارين في حياته لم يتسن لهم أن يرفعوا سيفًا في مواجهته، ولم يتسن لهم العثور في قوله أو فعله على دليل يظهر تناقضه مع الحق، وقد عانقت عزيمته عنان السماء. وكان كلامه المتصف بالخشونة أعظم دليل على عظمة هذا الرجل وحسن قبوله؛ إذ كان كلامه يمينًا لا يحنث فيه، وقد بذل في سبيل دولته الروح والحبيب والأخوة والأقارب. وإن المصراع الذي يقول فيه "من أجل القلوب الكبيرة في مجدنا" صادر عن حاسة تترجم ما بدخيلة فؤاده وتنطق معبرة عن أحواله. ولم يتبع قانونًا في تصرفاته وقت الضرورة سوى مايقتضيه الحال، وقد أثبتت النتائج النافعة التي تمخضت عن ذلك أن أفعاله كانت صحيحة النية عظيمة المقصد، أما عند خدمته للدولة في الأوقات العصيبة فإن هذا الحاكم الحكيم عظيم الشان قد أسدى منافع شتى للدولة.

([٤٨]) نامق كمال أوراق پريشان، مقالة دور استيلا ص: ١٥.

([٤٩]) نامق كمال أوراق پريشان، مقالة دور استيلا ص: ١٧.

([٥٠]) نامق كمال أوراق پريشان، مقالة دور استيلا ص: ١٨.

ذكر نامق كمال في هذا السبيل قتال السلطان سليم الأول ضد شاه إيران إسماعيل الصفوي، وانتصار السلطان سليم الأول على الصفويين في موقع جالديران واحتلال مدينة تبريز عاصمة الدولة الصفوية([٥١]). واكتفى نامق كمال بذكر ذلك إجمالا دون أن يذكر موقعة جالديران، يقول نامق كمال:

وكان شجاعًا مغوارًا لدرجة أنه استجاب لدعوة قضاة العسكر العثمانيين بأن تكون قوة العثمانيين الحربية تفوق قوة كل من تيمور وإسماعيل الصفوي، وسار في معية مائة ألف من جنود الإنكشارية ودكّوا معسكر إسماعيل الصفوي وظفروا بعز الدنيا والدين.([٥٢])

يتحدث نامق كمال عن فتوحات سليم الأول في الشرق، ويبرر قتاله المماليك ذوي الأصول التركية المتفقين معه في العقيدة والمذهب بأنه لم يكن لشيء سوى إحراز لقب "خادم الحرمين الشريفين"، ويفخر بقضائه على ما تبقى من الأسرة العباسية وعودته إلى اسطنبول حاملًا لقب خليفة المسلمين.

وبلغت مهارته أنه عرج إلى حكومة مصر في معية قواته من الإنكشاريين لإحراز لقب خادم الحرمين الشريفين لمحاربة المماليك الذين امتنعوا عن حرب شيعة إيران معه. ولما همّ الإنكشارية بالتمرد عليه من أجل أن يعودوا إلى دار ملكه قال لهم:" عودوا أنتم وسأبقى أنا وحدي" وقضى على ماتبقى من أسرة العباسيين في مصر، وحاز السلطان العثماني على لقب خليفة المسلمين، واستحوذ على إدارة الحرمين الشريفين، وأضحى السلطان سليم الرجل الذي جعل الممالك العثمانية قبلة المسلمين.

وإذا أنعمنا الفكر في مدة سلطنته والمشكلات التي واجهته والأعمال الجليلة التي أسدتها همته العالية للدولة العثمانية فسوف نعلم أنه قضى أكثر من نصف عهده في دفع الشر والغوائل عن الدولة وأنه أنجز ذلك على الوجه المراد. فقد وحّد الأجزاء المشتتة من مباديء تصور الإسلام، وسيطر على سواحل البحر المتوسط من جهتي آسيا وأوروبا. وبسط نفوذه على ميناء سبته، وهيأ دولته لتكون دولة عظمى، وقد وافته منيته ورحل عن العالم قبل أن يحقق مايصبو إليه من انضواء العالم كله تحت لوائه ([٥٣]).

وكان السلطان سليمان القانوني (١٤٩٤-١٥٦٦)، آخر من أرّخ لهم نامق كمال في مقالته "دور إستيلا"، وقد ولي الحكم من عام ١٥٢٠م وحتى عام ١٥٦٦م، بسط نفوذ العثمانيين في كل من آسيا وأفريقيا وأوروبا، ففي آسيا جرّد ثلاث حملات ضد الدولة الصفوية في إيران وانتصر فيها جميعًا، وضم كذلك اليمن إلى الدولة العثمانية، وفي إفريقيا ضم كلا من ليبيا وتونس واريتريا وجيبوتي والصومال، وفي أوروبا ضم بودابست عاصمة المجر وجعلها ولاية عثمانية، وحاصر النمسا ولكنها استعصت عليه، وضرب سواحل إسبانيا وأنقذ آلاف المسلمين في إسبانيا من اضطهاد الأسبان، بفضل البحرية العثمانية التي كان يرأسها خير الدين بربروس.([٥٤]) يقول نامق كمال:

وتولّى الحكم من بعده ابنه السلطان سليمان، وكان أسعد السلاطين العثمانيين وأعظمهم جاهًا وأطولهم حكمًا، ففي عهده خلّف السيف والقلم ألاف الأثار العظيمة، وبلغت الدولة العثمانية في عهده ذروة الكمال؛ فقد اتسعت الدولة شرقًا وغربًا كأنها كوكب دريّ يزين السماء، وكان ملكًا عظيما يفتح كل مملكة يقصدها بجيشه، وقد جرد حملات كثيرة إلى الشمال، وفرق في كل واحدة منها جموع القوات الأوروبية. وضم تحت

([51] د. شوقي أبو خليل، تشالديران، سليم الأول العثماني واسماعيل الصفوي، دار الفكر،القاهرة ٢٠١٠، ص:١٢.)

([٥٢]) نامق كمال أوراق پريشان ، مقالة دور استيلا ص: ١٩.

([٥٣]) نامق كمال أوراق پريشان ، مقالة دور استيلا ص: ٢٠.

([54] (Ilyas Karademir ,Osmanılı padişahları Ansiklopedisi,3.cilt.s:308.)

راية فتوحاته كثيرًا من شعوب المجر والأردل. وجرد بضع حملات إلى الشرق، وخطّ حدًّا لا يُتجاوز للدولة الصفوية التي كانت قد توسعت بالقوات الشيعية من نهر الفرات وحتى نهر جيحون وبقيت مدن وان وبغداد وروان وشروان وتوابعها تحت حكمه. وفي الشمال حاصر عاصمة أوستوريا بحشد عظيم من جنوده. أما في الجنوب فقد سيطرت قوة من جنده على أقليم اليمن، وأغارت قوة من أسطوله بقيادة خير الدين بربروس باشا على إيطاليا، واستولت على سواحل الجزائر التي كانت خاضعة لجمهورية فينيسيا، وأغرق أسطوله سفن الأعداء الذين احتشدوا ضده، وحاربت حربًا خاطفة في بحار الهند ضد قوات البرتغال الفرقة التي كانت تحت رئاسة سيدي علي عندما مرت في مياه البحر الأبيض، وفي ظل سيفه أمن العالم الإسلامي وكذلك أمنت الممالك الأوروبية، وكان التطور العمراني والنهضة الفكرية في كل منطقة من ربوع الدولة ثمرة غنائم الغزوات وشاهدًا على تعدد انتصاراته، ويعد عصر السلطان سليمان القانوني تاريخًا لكمال المعالي التي أفصحت في عصره عن الرغبات في كثير من العلوم والمؤلفات النافعة التي تعد نتاجًا لسمو الاهتمام. ولم يسلم أحد من ملوك آل عثمان حتى هذا الزمان الروح لبارئها في فراشه الوثير. (٥٥)

مدح نامق كمال في كتابه موضوع الدراسة الشعب العثماني، فهم أقوى شعوب العالم وهم الممدوحون بمكارم الأخلاق، وساق في هذا الصدد بيتا شعريًّا للشاعر المتنبي غيّر فيه بعض الكلمات.

أما أفراد الشعب العثماني فكانوا أعلم الشعوب في عصورهم، كما كانوا أقوى الأمم في الدنيا، وقد أضافوا إلى البطولة فضائل الأخلاق ومكارم الدين. وهل في الدنيا أمة فتحت سبيل الرقي بالسيف مثل العثمانيين، فعندما هاجرت مؤسساتنا من جهة الشرق إلى هذه النقطة المنبسطة، وكانت الأماكن التي هاجروا إليها لا تعدو أن تكون دائرة أفقية من الداخل أضحت في وقت وجيز على درجة كبيرة من العلم كأنها شمس بفضل الشعاع الساطع من السيف، وحريٌّ بنا أن نقول إن مآثر قوة العثمانيين وجلادتهم تعد أكبر معجزة مثل معجزة السيف. وإن البلاد التي ضموها إليهم بفضل قوة السيف قد عمّروها بجوهر العلم والعدالة، وأعلوا شأن الشجاعة فيها، وإذا لم يتسن للأمم التي اشتهرت بالسيطرة على العالم أن توسع دائرة ملكها فإن العثمانيين بشجاعتهم الفائقة قد أنجزوا أكثر منهم في ترسيم حدود دولتهم.

الخيل والليل والبيداء تعرفنا *** والحرب والضرب والقرطاس والقلم

وعلى هذا النحو، كان عصر السلطان سليمان نهاية عصر الفيوضات، ولربما كانت بداية عصر الكمال الذي تجلت آثاره فيما بعد على شأن الدولة العثمانية، ومرد ذلك إلى أن السلطان سليم كان يجتهد من أول يوم في ولايته الحكم في استجلاب أسباب السعادة لمستقبل الدولة العثمانية، أكثر مما كان كائنا في حاضر عصره. أما عصر السلطان سليمان فكان مثالًا من ناحية كمال التدابير التي ظهرت في العمارة الحالية والانتصارات العالية، وسن قوانين لكل شُعبة من شعاب الإدارة، بيد أن العديد من الحركات خالفت هذا القانون الطبيعي، وكانت عظمة السلطان تتحمل أعباء تفوق زمانها.(٥٦)

---

(٥٥) نامق كمال أوراق پريشان ، مقالة دور استيلا ص: ٢١،٢٢.

(56) نامق كمال أوراق پريشان، مقالة دور استيلا،ص: ٢٣، ٢٤

وختم نامق كمال مقالته بالحديث عن أسباب تردي أوضاع الدولة العثمانية، وعزا ذلك إلى ثلاثة أسباب، أولهما النزاع بين ولاة العهد على الحكم، وكان ثانيهما يتمثل في التوسع في قبول أبناء النصارى في فرقة الإنكشارية أما ثالثة الأثافي فكانت في عدم جرأة العلماء في الجهر بكلمة الحق في حضور السلطان، فكأن نامق كمال يريد إن يقول إن استقرار الحكم والجيش القوي المخلص والعلماء الصادقين هما عماد قيام الدولة القوية:

وأتلف أيضًا ولاة العهد في أشكال متفردة ما ورثوه من سليمان، ولم يولوا أهمية لوجوب التوسع صوب الدول الإسلامية التي كانت جزءًا أساسيًا من الأمة، وإن قبول أولاد الجنود الإنكشاريين في فرقة الإنكشارية قد أحدث خللًا عظيمًا في أصول الدوشرمة التي كانت منبعًا فياضًا للأمة الحاكمة. وإن بناء القاعدة الأساس في اختيار الدوشرمة على الاستحقاق القديم قد خرج بالقواعد عن أصولها، وكان الخواص الذين عُينوا عشرة أضعاف أسلافهم في خدمة السلاطين قد حرموا خزينة الدولة من مورد عظيم كان موقوفا عليها. كما حدث تغيير كليٌّ في الأخلاق العامة غلبت فيه الملاحةٌ الاستقامة، فقد استهل أحد العارفين الذي شرفت به مقام المشيخة في زمان السلطان سليم المجلس في حضور السلطان سليم بالآية الكريمة " إنه لايحب الظالمين" كما صحح أحد العلماء الذين شرف بهم مقام المشيخة في عهد السلطان سليم النظم السقيم الذي امتدح فيه السلطان سليمان بقوله: كل مافعله كسرى ليس حريًّا بالمدح" .

وعلى هذا النحو عرضنا الأسباب العديدة لعلو قدر هذه الامة بصفة دائمة في ذلك الزمان،وعند الحديث عن علو شأن العثمانيين فإن محامد العثمانيين لم تكن قاصرة على السلاطين فحسب، فإن الأحوال العامة للأمة العثمانية في ذلك الإبان كانت كمن يتشخص في شخوص السلاطين. وبناء على ماسلف ذكره فإن الكتابة عن أوضاع الدولة العثمانية تبدو تصويرًا لأسباب وجودها.([٥٧])

الفصل الثاني

المبحث الثاني: سيرة صلاح الدين

استهل نامق كمال كتابته عن صلاح الدين(١١٣٨- ١١٩٣م) بمقدمة عرض فيها الأسباب التي دفعته إلى الكتابة عن صلاح الدين وتفنيد الشبه التي ذكرها المستشرق الفرنسي ميشون التي تُرجمت من الفرنسية إلى التركية، ولم يصرح نامق كمال باسم المترجم ولا الكتاب المترجم من الفرنسية إلى التركية، وألقى باللوم على المترجم عدم تضمينه الردّ على هذه الشبه عند ترجمتها إلى التركية، وذكر نامق كمال المصادر التي اعتمد عليها في تفنيد الشبه، فهي مصادر إسلامية خالصة، وليس من بينها مصدر أو مرجع لأروبي، كما أن نامق كمال لم يعرض هذه الشبه في صدر هذه السيرة، وذكرها طرفًا منها في آخر سيرة صلاح الدين، وكان نامق كمال يعرض الشُّبه المثارة حول أبطاله في آخر سيرهم، وينبري للرد عليه، يقول نامق كمال في مقدمة سيرة صلاح الدين:

نمى إلى سمعي أنه تُرجم إلى لغتنا كتاب لمؤلف فرنسي يدعي ميشون عن تاريخ الصليبيين ويحوي هذا الكتب بين دفتيه العديد من الشبه والتشنيعات على الإسلام، ولاريب أنه عند نقل الكتاب إلى لغتنا كان من الواجب تفنيد الشبه الواردة فيه والرد عليها، بيد أن الترجمة قد اندمجت في موضوع الكتاب الذي كان تنفيسًا لما في صدر مؤلفه من الضغينة والبغضاء.

([٥٧]) نامق كمال أوراق پريشان، مقالة دور استيلا ص: ٢٥.

فعلى سبيل المثال فإن ميشون عندما استعرض الأماكن التي مرّت بها الحملات الصليبية لم يسترع اهتمامه سوى البحث عن أوجه النقص في أحوال الإمارات الإسلامية التي هبت للوقوف في وجه الهجمات من أجل المحافظة على الوطن والملة عندما أراد الصليبيون إظهار شجاعتهم ودمويتهم والسيطرة على الحكم في حرب عُدمت الأخلاق والوفاء وشابهها الانحطاط والوضاعة منهمرين على سوريا محرقين كل أرض يمرون بها دون وجه حق حاملين بين أضلعهم نار القهر والحقد. وما كتاب ميشون إلا اجتهاد للعثور على قبائح لم يتسن له أن يجدها لو أنه أنعم النظر بعين الاعتدال. وعلى هذا النحو لما رأيت تأثير الأحكام التي وردت في كتاب ميشون على الأفكار العامة تشجعت لتحرير سيرة ذاتية للسلطان صلاح الدين الذي يعد أنموذجًا للكفاح ضد أعدائه من أهل الصليب درءًا لسوء الظن بحق ثلة من الشخصيات التي يفخر بها الإسلام. ولعل ما جاد به الفكر في هذا السفر الصغير في حقيقة الأمر يعدّ كتابًا دُون في ميدان الحرب زمن جريان الأحداث. وكان اعتمادي في تدوين هذا الكتاب على المؤلفات الإسلامية لأصحاب الفكر في مجتمعنا حتى وإن كانت لا تحظى بقبول الأوربيين واستحسانهم، وقد أمطت اللثام في هذا السفر عن عدد من الفوائد العميمة، ولاريب أن هذا السفر المتواضع يعد من الأعمال العلمية المعتبرة في أوروبا سواء أكان في منبر الروايات أو فن المعارضات. وكتبت نزولًا على أمر أحد الأحباب الذي أجبرني على طاعته سيرة ذاتية لكل من محمد الفاتح والسلطان سليمان القانوني، ولأن جسارتي على نشرها كان أمرًا بدهيًا فقد ابتغى قلبي أن لا يطويها النسيان من أي شخص، وإن جمعًا من الأحداث العظيمة ينبع من ماضينا العريق وتمتد منه عبر الزمان، وكم من قوة نكتسبها ونفتقر إليها من كشف تلك الحقائق التي تتباعد عنا، وإنني في هذا الصدد ألتمس العذر لكفائتي التي تتسم بالعجز حتى وإن كثرت الأخطاء التي تلاحظها.([٥٨])

بدأ نامق كمال بذكر تاريخ مولد صلاح الدين ونسبه ونشأته في جملة واحدة انتقل بعدها سريعًا إلى الحديث عن مرافقته لأبيه وعمه في أعمالهما العسكرية، كما ذكر طرفًا من الصفات التي اتسم بها في ريّق شبابه من وقدة الذكاء والعزوف عن الدنيا والرغبه في مطالعة الكتب ومجالسة العلماء، يقول نامق كمال:

تزين الوجود بمولد أبي المظفر الملك الناصر يوسف صلاح الدين ابن أيوب في تكريت من أعمال كردستان سنة خمسمائة واثنتين وثلاثين من الهجرة، وقد رافق صلاح الدين والده وعمه شيركوه اللذين كانا في الخدمة العسكرية لأحد ملوك الطوائف، وقضي ميعة صباه في العراق وحلب.أما شبابه فكان في عصر استبداد حكومة ضرغام من وزراء الخليفة الفاطمي الذي شغل بملذاته في قصره تاركًا شؤون حكم مصر لمن هيمن على زمام الأمور. وبناء عليه فقد أمر السلطان نور الدين ابن شهيد (زنكي) حاكم دمشق وحلب شاور محمود منافس ضرغام بتجريد حملة إلى مصر وأمده بنصر الدين شيركوه عم صلاح الدين.ووجد شيركوه في نفسه رغبة في اصطحاب صلاح الدين ابن أخيه معه، بيد أن صلاح الدين كان يتصف بوقده الذكاء وتقلب المزاج قد ألف في نفسه عزوفًا عن الدنيا ورغبة في مطالعة الكتب ومصاحبة العلماء حتى في أشد الأوقات اضطرابًا، وكان لا يرغب في الابتعاد عن لذة مداولة الكتب ومطالعة الآداب وظل على ذلك حتى قبل العمل العسكري بعد آلاف المحاولات والتوسلات من والده، فجرى اسمه إلى الأبد على ألسنة الناس وتعلق بالعرش. وفي ذلك الإبان وصل السوريون إلى مصر وقد عوملوا عند مجيئهم على أنهم أعداء وذلك لأن شاور هزم ضرغام خصمه قبل مجيء السوريين، واستغنى عن معاونة السوريين وضحي بمنفعة الأمة بالاتفاق مع الأعداء ليتجنب تدخلات أهل الشام واستنجد بجيوش أهل الصليب من القدس ومن طريق البحر.([٥٩])

([٥٨]) نامق كمال أوراق پريشان، مقدمة سيرة صلاح الدين.
([٥٩]) نامق كمال أوراق پريشان، سيرة صلاح الدين، ص: ٤.

ولما رأى كل من شيركوه والأمراء الذين معه وقوع دولتهم الصغيرة بين تحالف دولتين أصابهم الحيرة والإرتباك إلا أن صلاح الدين تحلى بعزيمة النفس والحزم الذي يليق به واقتحم ميدان القتال وعُهِد إليه بإدارة الجيش فسيطر على بعض الاستحكامات ورأى أن يتحصن هناك منتظرًا الإمدادات التي سيمده بها نور الدين وسيطر على حين غرة على قلعة بلبيس وأجرى بمهارته تحركات عسكرية ستكون مسار فخر يفخر بها الملوك. وتوقفوا هناك لانشغالهم بالدفاع عن قلعة بلبيس، وقد مر زمن على المدد الذي أرسله والده السلطان نور الدين بصفة مباشرة إلى أسد الدين شيركوه، أمّا الصليبيون فقد ولّوا الأدبار خائري القوى بغية المحافظة على وطنهم في الاتجاه الذي ساروا فيه نحو القدس وأُجبروا على العودة. وقد أُجبر المصريون على التصالح مع جيش أسد الدين شيركوه خوفًا من هجوم نور الدين. وأعد صلاح الدين نفسه بنود عقد المصالحة، وقد عاد إلى الشام بعد أن أظهر أول أثر لمهارته الفائقة التي امتلكها في السياسة وفي الحرب مع السلامة والخدمات الأمنية التي وفرها لجنوده، ووهب نفسه وكيانه وما يحب للعلم والمعرفة. بيد أن الزمان لم يمهله كثيرًا في هذه اللذة، فقد فهم السلطان نور الدين من مراسلات أسد الدين شيركوه أن فتح مصر أضحي أمرًا يسيرًا وأنه قد آن الأوان للقضاء على الخلافة الفاطمية وقد استأذن السلطان نور الدين الخليفة العباسي في تعيين شيركوه على مصر للانتقام من شاور.([٦٠])

وقد قبل أسد الدين شيركوه المهمة شريطة مرافقة ابن أخيه يوسف صلاح الدين لاحتياجه إلى معاونته ودرايته في هذه المهمة. ولم يرفض صلاح الدين تكليفات أفراد الأسرة الحاكمة بالذهاب إلى مصر، ورافق عمه أسد الدين شيركوه نزولًا على التماس السلطان نور الدين وإلحاحه. ولما سمع شاور بتحركات السلطان نور الدين عرض على حكومة القدس الصليبية الجزية والمعاونة معرضًا شرف الإسلام للاضمحلال في سبيل حفظ جاهه ومكانته، وأعانه الصليبيون بالمؤن التي أراد. وانضم بجيشه إلى جنود مصر عند نقطة التقاء آسيا وأفريقيا، وكانوا يعقدون العزم على قطع الطريق أمام السوريين، وكان صلاح الدين القائد الفعلي لجنود نور الدين، أما القائد الرسمي فكان عمه أسد الدين شيركوه. وعندما سمع يوسف صلاح الدين بما يحيكه أعداؤه فاجأهم بجرأة غير معتادة بمروره من داخل صحراء مضمحلة خربة. وصل صلاح الدين إلى شاطئ النيل مجتازًا آلاف العقبات والمعوقات وظل على عزيمته الثابتة ولم يتردد أو يضعف عندما ارتجفت القلوب وأُدهشت من شدة الريح وجحافل الأعداء وسرعة تغيير الأماكن. وكان الجنود السوريون لا يتعدون ألفي شخص، وقد التقوا بجيش الحلفاء الذي يزيد عدده عن مائة ألف شخص، وقد رأى أمراء جيش صلاح الدين أن يعدلوا عن المواجهة بسبب التفاوت الهائل بين الجيشين، إلا أن صلاح الدين قال مقولة مست شغاف قلب كل جندي وأثارت همتهم:" طالما أننا نخاف من الموت فلماذا لا نجلس في بيوتنا ونُشغل بأولادنا وعيالنا، ولقد عاهدنا السلطان، وصرنا من جنده، فلنواجه أعداءنا غيرمبالين بكثرتهم أوقلتهم ".عاهد الجنود قائدهم من جديد، وانصرفوا في ظلال مهارتهم وجسارتهم لمجابهة عدو فاقهم عددًا خمس عشر مرة.([٦١])

وقد أفرد نامق كمال حديثًا طويلا لمعركة حطين ٥٨٣ هـ، ١١٨٧م:

وصل جيش صلاح الدين بعد ساعتين إلى صحراء حطين وضواحيها، وسيطر على الممرات والبحيرات والنهر الواقع في الصحراء مع الأماكن التي رآها ضرورية للجيش. وعندما وصل جيش الصليبيين إلى حطين، أذهلتهم استعدادات جيش صلاح الدين العسكرية وقد ظنوه في طبرية. فهجموا هجومًا ضاريًا عدة مرات على القرى المكلفة بالمحافظة على النهر والبحيرة وكانوا يتساقطون في المياه أكثر من أي شيء نظرًا للمواقع التي سيطر عليها جيش المسلمين. وعجزوا عن التقدم خطوة واحدة لما أبداه جيش صلاح الدين من استبسال في مقاومته. وقد أرخي الليل سدوله عليهم دون أن يحرزوا أي تقدم، وانكسر الصليبيون دون التحام كامل مع جيش صلاح الدين، وعجزوا عن الهجوم على جيش صلاح الدين نظرًا للمهارة التي

([٦٠]) نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة صلاح الدين، ص:٢٥

([٦١])نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة صلاح الدين، ص:٧٥

يتمتع بها صلاح الدين والمواقع التي أحسن اختيارها. ولما أسفر الصبح كان الفريقان أحدهما متعطشًا إلى قطرة ماء، والآخر متعطشًا إلى دماء الأعداء، ولما شُغل جند الصليب ببذل النفس بهجمات عنيفة متوالية على جيش صلاح الدين، ساق صلاح الدين فرسانه الموجودين في جناحي الجيش وشتت شمل الجناح الأيمن في جيش الصليب، وقلب أطراف الجناح الأيسر فأحدث تغييرًا كبيرًا في جيشه. وحاول قائد الجناح الأيسر في جيش الصليب أن يُحرر جيشه بالعبور من بين صفوفي الجيش الإسلامي بهجوم يائس. ولم يتسن للملك أن يفعل شيئًا سوى اللجوء إلى الهضبة الواقعة بجوارهم في معية الفرقة الملازمة له. فسيطر جند الإسلام على الهضبة بثلاث حملات جنونية متعاقبة وأسروه ومن معه.([٦٢])

وكان الأعداء الذين سقطوا في يد جند الإسلام كثيرين بين قتيل وأسير. فمن كان يرى الأعداد الضخمة من القتلى يظن أنه ليس ثمة أسير ومن يرى الأعداد الهائلة من الأسرى يظن أنه ليس ثمة قتيل. وفي الوقت نفسه ساقوا رؤساء الصليب إلى خيمة صلاح الدين فأجلسهم صلاح الدين بإعزازٍ وإكرام، وأشار للأمراء الذين معهم بالجلوس. وقدم الملك بأمر صلاح الدين لرنودو شاتيون بقية كوب ماء بارد بعد أن احتسى بعضًا منه قائلاً: "خذ شاتيون ".

ومما هو جدير بالذكر أنه عندما شُغل صلاح الدين بحروبه في الشام ومصر جمع هذا الرجل في معيته عدة آلاف من اللصوص وقطاع الطرق، وأغار على قاصدي بيت الله الحرام في مكة، وقد أقسم صلاح الدين أن يعدمه بنفسه إذا ظفر به في أي وقت، ولأنه اشترك في هذه الحرب فلم يكن صلاح الدين يقبل أي كفارة ليمينه. وعندما سمع اسم شاتيون ثار غاضبًا "لا يشرب هذا الخائن الماء في حضوري، إنه لا عهد له ولا أمان".

وبعد موجة من التوبيخ على نقضه العهود ومهاجمته الحجيج خيروه ومن معه بين الإسلام والسيف، وفي النهاية أعدموه بعد رفضه الإسلام. وشرع صلاح الدين في الحال إلى جنى ثمار هذا النصر العظيم، فسيطر على عكا وصيدا وبيروت، وفتح خمس عشرة قلعة مشهورة بالاستحكامات الحصينة بجوار القدس. وسيطر في تلك الأثناء على قلعة عسقلان وجبر أهلها عن الأموال والأرواح التي أهدرت عبثًا في زمن حكم الصليبيين وسيطرتهم. وعرض شرط إطلاق سراح ملك القدس.([٦٣])

أخذ نامق كمال في آخر سيرة صلاح الدين في الرد على الشبهات التي حاول بعض مستشرقي الغرب وبعض المؤرخين العرب ذوي الميول الفاطمية إلصاقها بصلاح الدين:

كان صلاح الدين نسخة عظيمة جمعت العديد من الأوصاف الجليلة والفضائل الذاتية والمزايا السياسية التي تبعث على الارتياح والسكينة للقلوب أكثر من مزاياه العسكرية. بيد أن أعلى هذه المزايا والخصال في شخصية صلاح الدين تتجلى في مجاهدة النفس حتى بلغت أسمى درجات الكمال البشري ولا سيما في المهمات التي حملها على عاتقه، ومن ثم فقد تحول إلى الاهتمام اهتمامًا بالغًا بالشريعة عازفًا تمام العزوف عن الانغماس في ملذات الدنيا وشهواتها. وكان موفقًا في كل أمرٍ قصده، مطيعًا لما يقتضيه العدل، عظيم التأثير في أمرائه وأقاربه في رحاب مساندة صفاته الخاصة التي جمعت أعظم ما في الطبيعة البشرية.

ولا ريب أن أعظم إنجاز حققه صلاح الدين يتمثل في نجاحه في كسر شوكة الصليبيين، فقد كان ذلك سببًا في حدوث أعظم التغييرات وأحقها على وجه البسيطة. من أجل ذلك بلغت شهرته الآفاق وذُكر بتقدير وإجلال بين أعظم الأسماء التي تعد مثار فخر للإنسانية في كل أرجاء الدنيا، وقد ذُكر اسمه مقرونًا بالعدل

([٦٢])نامق كمال، أوراق پريشان سيرة صلاح الدين، ص:٧٦

([٦٣]) نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة صلاح الدين، ص:٨٥.

والرحمة حتى في أصعب المواقف والأوقات. ولقد كان اتصاف صلاح الدين بصفة الكمال البشري أمرًا يسيرًا رغم أنها من المُحالات على البشر.([٦٤])

بيد أن الشرف لا يسلم من التعريض، ومن هذا القبيل لم يسلم صلاح الدين من مؤاخذات بعض المؤرخين الذين يتكلمون إمّا عن جهل وإمّا عن ضغينة. ومن هذا القبيل أنهم عدوا إلغاء صلاح الدين الخلافة الفاطمية عندما عينه الخليفة الفاطمي في ذلك الوقت وزيرًا في حكم السلطنة إنكارًا للمعروف وكفرًا بالنعمة. بيد أن هؤلاء ًلا يُعمِلُون عقولهم، فلو أنه لم يلب أمر السلطان محمود في هذا الصدد فإن هذا سيعد أولًا خيانة لولىّ نعمته وثانيًا: كان من الضروري أن يستل السلطان محمود سيفه تجاه أعمال التمذهب وأتباعه من أجل الحفاظ على الشيعة وحقنًا لدماء المسلمين.

وقد زعموا أيضًا أنّ صلاح الدين كان يفكر في التمرد على نور الدين بمجرد أن استقر في مصر. وأورد هذا القول تقى الدين مستشهدًا على ذلك بأن صلاح الدين استولى على سوريا ورفض لقاء نور الدين. وأقول له يا سيد تقي الدين أي دليل نستطيع أن نحكم به على نوايا الناس وما تكنه صدورهم؟ إن عدم مقابلة صلاح الدين السلطان نور الدين كان بسبب وفاة أخته فاطمة، فهل من حقنا أن نُؤوّل هذا السلوك على هذه العلة؟ وإذا أتينا على قضية ضم سوريا فلو كان في نية صلاح الدين التمرد فلقد تمرد جميع الأمراء بعد وفاة السلطان نور الدين، فهل من أحد غير صلاح الدين سكّ العملة وخطب باسم السلطان نور الدين ؟

وإذا كانت حلب قد عرضت التسليم له فإن دمشق قد استُردت بفضل بيعة الأهالي بشوق عارم له وبقوة سيفه الذي استله على العصاة الذين أذعنوا له، وقد عُينّ صلاح الدين على عموم سوريا بأمر من الخليفة العباسي الذي كان يُعد المرجع الرسمي. ([٦٥])

وتدعي ثلة من المؤرخين الأوروبيين أن صلاح الدين أعدم ظلمًا وغدرًا رنود وشابتون ومجموعة من المؤيدين لهما. في حين يُقرّ أكثرهم أنّ رنود وشابتون ومن تبعهما بظلم وغدر يستحقون ما نالوا من عقاب جزاءً وفاقًا لغدرهم. وها هي الحقيقة فقد نقض هؤلاء الأشخاص عهودهم مع المسلمين أكثر من عشرين مرة. وكانوا يهاجمون القوافل ويقطعون الطرق، ويُغيرون على القرى، فهم في الأصل قطاع طرق، وبناءً على ما سلف ذكره فإن إعدامهم يعد محافظة على حقوق الأمم وصيانة للأنفس.([٦٦])

الفصل الثالث: المبحث الثاني سيرة محمد الفاتح

كان السلطان محمد الفاتح من أحب السلاطين العثمانيين إلى قلب نامق كمال، ولقد كتب نامق كمال عن الفاتح وعن سليم الأول أحب السلاطين العثمانيين إلى قلبه مرتين، كانت أولاهما في مقالة "دور إستيلا " ثم صاغ سيرة ذاتية منفردة لكل واحد منهما ، وقد ارتأيت أن أسهب في الحديث عنهما في هذه الدراسة لتكرار نامق كمال الحديث عنهما، ولتعدد الأعمال التي تناولت محمد الفاتح وسليم الأول بالبحث والدراسة، واكتفيت بذكر تعريف نامق كمال لهما وذكر ردوده على الشبه التي أثيرت حولهما، يقول نامق كمال:

ولد السلطان فاتح محمد خان سابع سلاطين الدولة العثمانية في أدرنه في اليوم السابع من شهر رجب عام ٨٣٣هـ، ووفقًا للقواعد المألوفة فقد ولي على أماسيا في ريّق شبابه، وكان ذلك من أكبر العوامل في نجاح الدولة العثمانية، نشأ محمد الفاتح وفي طبعه شمم وإباء، من أجل ذلك كان لايكاد ينقاد إلى التعليم ولا

([٦٤]) نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة صلاح الدين، ص: ١١٩،١١٨، ١٢٠.

([٦٥]) نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة صلاح الدين، ص:١٢٣.

([٦٦]) نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة صلاح الدين، ص:١٢٥.

يدخل تحت سيطرة أحد لشدة طبعه وامتزاجه بسورة الشباب، ودام الأمر على هذا الحال إلى أن تولى أمر تعليمه "مُلا كوراني"، وكان "مُلا كوراني" ممن جمع بين العلم والورع، تلك الخصلتان اللتان قلما اتفقتا برجل، فأدّب تلميذه وأحسن تربيته غير طامع في أنه سيكون يوما ما ملكًا، فيسعى في طمع أو جاه، وكان "كوراني" يطمح إلى جعله أهلا لمنصبه القادم ولم يدخر وسعًا في تثقيفه وتنويره شاء محمد الفاتح أم أبى. ومن ذلك أن "مُلا كوراني" دخل على محمد الفاتح وفي يده عصا، فلما رآها الأمير محمد سأله عنها، فأجابه:" إن والدك علم بتمردك عن التعلم فأمرني أن أؤدبك بهذه العصا إن عصيت أمري". سمع الأمير هذا التهديد الذي لم يعتد سماعه فقطب جبينه، بيد أنه لم يكن في وسعه إلا الانصياع والخضوع كالشبل الذي يقع في قبضة الصياد ولا يجد مناصًا أومهربًا. تعلم الأمير محمد شيئًا فشيئًا، وذاق طعم العلم، فوجد أن لذته تسمو فوق كل لذة حتى إنها فوق لذة الجلوس على العرش التي تاقت إليها نفسه وشغلت قلبه ولُبّه.([٦٧])

وقد أبدع نامق كمال في تصوير بطولات محمد الفاتح والجيش العثماني في فتح القسطنطينية، واتخاذها عاصمة للدولة العثمانية:

كان عدد الجيش العثماني يزيد على مائتي ألف جندي، وعُدده ١٣٠ مدفعًا، منها ثلاثة كبار، وكان يتولى خدمة أكبرها ٤٠٠ جندي ويجره مائة ثور، ويعتني بتمهيد الطرق التي يمر منها مائتان وخمسون جنديًا ؛ ولذلك لم يتسن للجيش الوصول إلى أسوار القسطنطينية إلا بعد مسيرة شهرين كاملين. يرى الناظر الآن إلى أطلال القسطنطينية، ويستدل منها على أنها كانت محاطة بسور واحد من جهة البحر والخليج (القرن الذهبي)، وبأسوار وخنادق مزدوجة بعمق مائة قدم، وحصون منيعة من جهة البر، وبالإجمال فقد كانت المدينة مثلثة الأضلاع " سراي بروني، ديوانسراي، يدي قلعة "، وكلها مجهزة بوسائل الدفاع.

أخذ الجيش العثماني بحصار المدينة، فعسكرت ميمنته التي تضم مائة ألف من المشاة أمام يدي قوله وميسرته التي تجمع خمسين ألفًا إزاء باب البلاط، وزغنوش باشا مع ثلة قليلة في جهات غلطه، والسلطان نفسه خيم مع حاشيته التي لا تقل عن خمسة عشر ألف جندي إنكشاري في قلب الجيش. أما في البحر فقد رست ثماني عشرة سفينة وزهاء أربعمائة مركب لتشديد الحصار وجلب المؤن والذخيرة، وكانت حامية القلعة تزيد عن ثلاثين ألف جندي. بدأ الحصار وأخذت نار الجيش العثماني تتطاير على هام القلعة، والعدو لا يتمكن من مقابلته؛ لأن الحواجز المنيعة والسراديب الحربية التي رتبها الفاتح جعلت جيشه في مأمن من الخطر.

ولما ضاق العدو ذرعًا هجم هجمة المستميت على خارج القلعة، وظن أن هذه الجرأة تفيده شيئًا مذكورًا، ولم يدر في خلده أن الجنود العثمانية لا تهاب الموت ولا تخشى الصدام، فهي تسعى إلى إحدى الحسنيين، الشهادة والنصر، فلما التحما مرة أو مرتين تأكد العدو فيها أن أمامه جيشًا لا يُشَقُّ غباره ولا تُفَلُّ سيوفه عاد أدراجه بصفقة الخاسر.([٦٨])

وكما أبدع نامق كمال في وصف الجيش العثماني أبدع في الدفاع عن محمد الفاتح، وينبيء دفاعه عن الفاتح عن غزارة معرفته التاريخية، حيث عقد المقارنات بين مافعله الفاتح وما ارتكبه الغرب في حق المسلمين في محاكم التفتيش في الأندلس.

([٦٧]) نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة محمد الفاتح، ص:١،٢.

([٦٨]) نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة محمد الفاتح، ص:٢٥.

فلننحِّ هذه الأكاذيب جانبًا، بل ننبذها وراءنا ظهريًا، ونرجع إلى ما أثبته التاريخ للفاتح من الشدة والصرامة في أعماله، منها: قتله فريقًا من حكام وجنود البلاد التي فتحها بالسلاح، مما دعا مؤرخي الغرب لأن يسلقوه بألسنةٍ حداد، ولوصدرت هذه الأعمال القاسية في عصر سعيد كصدر الإسلام أو في عهد كزماننا هذا، بلغ فيه الرقي الفكري مبلغًا عظيمًا ودرجةً عاليةً ، لحقّ عليها اللوم من كل جانب. ولكنها جرت على إثر دماء مسفوكة ونفوس مهدورة، بل قامت على أطلال المظالم والمغارم التي أحدثتها غارة جنكيز خان المغولي، وسلطة البابا أنينوسان الثالث الذي أوجد طريقة الإنكيزيسيون، بحيث يأسرون كل من يخالف مبادئ الكاثوليك وينكلون به عذابًا أليمًا.

أجل، إنها جاءت في ذاك العهد الذي ساءت فيه الأخلاق وتعطشت الإنسانية إلى الدماء، وأُشهر سيف الغدر والانتقام، واندلع لسان نار العداء فلم يبق ولم يذر. كيف يسوغ لنا أن ننقد أعمال الفاتح ونستهجن وقوعها، وقد سِيق إليها بحكم الضرورة ومقتضيات الظروف في زمن كان به رهبان الأندلس يؤذون كل مسلم عثروا عليه أشد الإيذاء لينصّرونه بغيًا وعدوًا، حتى إذا سلّم بالنصرانية جعلوه وقودًا للنار ؛ ليذهب إلى الآخرة مُطهرًا من الأدناس والأرجاس كما زعموا، في عصر كان به هونياد الهنغاري([٦٩]) يأمر بإعدام أسرى المسلمين والتمثيل بهم لتنبسط أساريره ويُسرُّ فؤاده بسماع أنينهم بدلا من سماع المعازف وآلات الطرب أثناء جلوسه على مائدة الطعام، في عصر كان إسكندر بك الألباني([٧٠]) يعلق أجساد العثمانيين في المشانق كأنها لحوم الشياه. في عصر كان به حاكم أفلاق([٧١]) يقيمُ كل تركي ظفر به على الأوتاد، ويملأ بهم السهول والوِهاد في آونةٍ كان بها حاكم طمشوار([٧٢]) يسقي جنوده من الخمر الممزوجة بدماء المسلمين ويجتذ بنواجذه لحوم الجرحى منهم قطعًا قطعًا ويقوم راقصًا فيها، في وقتٍ كان تستحكم فيه حلقات الغزو والسبي والقتل والظلم في الحروب التي تقوم سوقها وتشتعل نارها بين الفينة والفينة.([٧٣])

فماذا ننتظر في مثل هذه الظروف القاسية؟ كيف نتوقع من الفاتح مراعاة حقوق الأمم؟ وهل هي تُراعَ إلى الآن بحذافيرها من أية دولة غالبة، ونحن في عصر النور وعهد الحضارة؟ فالأولَى بنا أن ندرس سيرة الفاتح ونفرق بين الغث والسمين، لنعرف ما إذا كان اتبع فيها تعصبًا ذميمًا أو ميلًا خاصًا أو أنه تقيد بالضرورات الآنية. والذي نجزم به أن سيف الشريعة الذي تقلده الفاتح لم يُجَرَّد على أحدٍ بغير سبب، فنسبة التعصب إليه عاطلة باطلة. ولو كانت به نزعة إلى التعصب الديني لما أبقي على المذهب الأرثوذكسي وخص بطاركته بوافر المساعدات وحسن المعاملة، ولا زلنا إلى الآن نرى رسوم الأنواط التي صاغها الروم وعلى أحد جانبيها صورة الفاتح، وهي أعدل شاهد على شكرانهم منه واعترافهم له بالجميل. وإذا نظرنا للأمور بمنظور التأمل وسبرناها بمسبار التعقُّل نرى أن الفاتح كان يعامل أسري المسلمين والمسيحيين سواسية، وقد أمر بإعدام أسرى تتر الوارساق والتركمان من المسلمين بعد قضائه على دولة القرمانيين. ولو كان لنفسه ميلٌ لسفك الدماء لبانت آثاره في فتحه القسطنطينية، ولجرت الدماء فيها أنهارًا

([٦٩]) يوحنا الهنغاري(١٣٨٧ ـ ١٤٥٦م)، عسكري مجري، قاد الجيوش الأوروبية في معركة فارنا ضد العثمانيين عام ١٤٤٤م،فانتصر الجيش العثماني، وحاول مرة أخرى في معركة قوصوه الثانية عام ١٤٤٨م وانهزم ولاذ بالفرار. انظر تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، بيروت ٢٠١٣م،ص:١١٢ بتصرف.

([٧٠]) أحد النبلاء الألبانيين،(١٤٠٥ ـ ١٤٨٦م) دخل في طاعة العثمانيين إبان توسع دولتهم في أوروبا الشرقية، ثم تمرد عليهم وارتد عن الإسلام وحاربهم ٢٥ سنة، وكانوا يطلقون عليه الإسكندر المرتد.انظر يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية،ص:١١٨ بتصرف.

([٧١]) فلاد دراكولا، أحد أمراء إمارة أفلاق التابعة قديمًا لمملكة المجر، وتتبع حاليًا دولة رومانيا، ضمها العثمانيون إلى دولتهم في عهد مراد الأول بعد معركة قوسوه عام ١٣٨٩م، واستطاع فلاد دراكولا استردادها من العثمانيين مؤقتًا عام ١٤٥٦م، ويقال إنه قتل من ثلاثين ألف شخص إلى مائة ألف شخص من العثمانيين، ويعرف باسم فلاد المخوزِق لأنه كان يُجلس أعداءه على الخازوق. وقد تمكن السلطان محمد الفاتح من هزيمته وقتله، وأمر بتعليق رأسه لإثبات وفاته للعامة في اسطنبول. انظر منصور عبدالحكيم، فلاد الثالث المخوزق دراكولا، دار الوليد للنشر والتوزيع، القاهرة٢٠١٨م،ص:١٢.

([٧٢]) مدينة تابعة لرومانيا حاليًا، وكانت تابعة قديمًا لمملكة المجر، سيطر العثمانيون عليها عام ١٥٥٢م لمدة ١٦٤ عامًا، إلى أن أستولت عليها النمسا عام ١٧١٦م. انظرمحمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، ص:٢٥٨.

([٧٣]) نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة محمد الفاتح، ص:٣٠.

بعد أن قاسى ما قاساه من العنت واللغوب، فضلًا عن أن له ثأرًا دينيًا عند الروم منذ عهد يلدرم بايزيد، فإنهم لما علموا بهزيمة السلطان بيازيد أمام تيمورلنك، أبادوا الحي الإسلامي الذي أقامه بايزيد بين ظهرانيهم في القسطنطينية، وقتلوا أهله عن بكرة أبيهم. فإن من يكون لديه هذان السببان العظيمان اللذان يدعوانه إلى الانتقام فيتناساهما، أفيحق القول عليه أنه على شيء من التعصب؟ ([٧٤])

ومما هو جدير بالذكر أن نامق كمال أقرّ بأن محمد الفاتح لا يمكن بحال مقارنته بصلاح الدين الأيوبي فضلا عن مشابهته بصلاح الدين الأيوبي، وعلى الرغم من هذا الإقرار الجازم إلا أنه ألزم نفسه حتى النفس الأخير سبيل الدفاع عن محمد الفاتح، يقول نامق كمال:

أجل، إن الفاتح لم يكبح كل آماله وأمنياته شأن عمر بن عبدالعزيز، ولم يكن جوادًا يحسن إلى المسيء ويهادن العدو مثل صلاح الدين الأيوبي رحمهما الله، إلا أنه لم يتأخر عنهما في اتباع سبيل الرشد، واتخاذ العدل منهاجًا. ووضع السيف حيث لزم وإقرار العطاء حيث وجب.

أجل، إنه سفك دماء غزيرة، وأباد جنودًا كثيرة، وقتل ملوكًا عِدّة، وحاسب رجاله حسابًا نكرًا إلا أنه لم يتدنس قط باستعباد شعبه أوقتل أهل البلاد التي تولى أمرها أو استعمال الجريمة والأحكام الغليظة مع المحكومين، بينما كانت هذه الأمور من عاديات الأمور في تلك العصور المظلمة.([٧٥])

الفصل الثالث:المبحث الرابع سيرة سليم الأول

ذكر نامق كمال غير مرة أن السلطان سليم كان أحب السلاطين العثمانيين إلى قلبه، وكتب عنه في معية هذا الحب العميق، والتزم الاستبسال في الدفاع عن السلطان سليم في كل شبهة تثار ضده به، فنامق كمال يرى السلطان سليم محقًا في انتزاعه العرش من إخوته رغم أنه الأصغر سنًا، وهو محق كذلك في قتاله المماليك في مصر، وإعدامه القائد المملوكي طومان باي شنقًا على باب زويله، ويسوق نامق كمال من أجل ذلك المبررات التي تفصح عن انحيازه التام لسليم الأول، يقول نامق كمال:

ولد السلطان سليم الأول المعروف بلقب ياوز **(القاطع)** في أماسيا عام ٨٧٥ هـ قضى ميعة صباه في رفقة مدرسة أبيه الكبير، وبعد أن تسلم بيازيد الثاني سُدّة الحكم عُين على إمارة طرابزون وفقًا لقانون الحكم العثماني. ولما بلغ الثانية والأربعين من عمره وتهيأ الزمان والمكان لاستعداداته وكفاءاته لم يكن يغضُّ الطّرف أو يتغاضى عن أن يُذكر اسم دولته بشيء من الأسف والأسى؛ فهو سليم أكبر أبناء الأسرة الحاكمة علمًا وأدباً، وبذل جهدًا في تحصيل أسباب الكمال، ولم تكن همته مشغولة بشيء أكثر من رغبته في إعلاء شأن دولته العثمانية وتبديل أحوالها وإظهار قدراتها، من أجل ذلك دخل في حروب مع الشيعة القزلباش والكرج وأضعف قوتهم، ووسّع دولته شرقًا حتى تفليس وجنوبًا حتى أرزنجان.

ولا ريب أن السلطان سليم الأول بلغ هذا المقصد سابحًا في الدم، والحقيقة أنه لم يكن لديه رفاهية الاختيار لتحقيق النتائج المطلوبة، ولم يكن ثمة شخص قادرًا على كشف حقيقة مجموعة من المعضلات والولوج إلى غياهب الظلمات التي كانت ممتدة في ذلك الزمان. وإذا وجدت ثمة حيلة ناجعة لدفع بلاء مبرم ناتج عن مجموعة من التدابير فمن الضروري النظر إلى حكمة ماهية الأفعال وليس النظر فقط إلى النتائج. ([٧٦])

([٧٤]) نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة محمد الفاتح، ص:٣٤.
([٧٥]) نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة صلاح الدين، ص: ٧٦.
([٧٦]) نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة سليم الأول، ص:١.

وقد يلجأ نامق كمال إلى الطعن في الأمراء العثمانيين تبريرًا للسلوك القاسي الذي اتبعه الحاكم مع إخوته، يقول نامق كمال:

لقد وجد السلطان سليم الأول الدولة على هذا الحال، فإن الأمراء الذين بلغ عددهم عشرة أو اثني عشر أميرًا، كانوا يتفاوتون في درجة الفساد الأخلاقي من واحد لآخر، وكانوا في الدرجة الأولى والثانية من وراثة العرش، وقد استقل كل واحد منهم بجيش من أتباعه ومؤيديه من الشعب، وكانوا يعملون جاهدين بغية الوصول إلى سدة الحكم أيًّا كان الأمر، فهم لا يفكرون في شيء سوى الظفر بالسلطنة، وكان كل واحد منهم ينثر معسول الوعود والعطايا على مؤيديه.([٧٧])

أما الشيعة فقد خرجوا بغيًا وعدوًا عن دائرة الفكر والضمير، وقد خرج جماعة من عصاة العثمانيين المسلحين مع الشاه إسماعيل على الدولة العثمانية وعرّضوا وجود الأمة وسؤددها للخطر. وإذا كان الأمر كذلك فيتعين على السلطان إيجاد التدابير اللازمة.([٧٨])

ويهيئ نامق كمال القاريء لتلقي دفاعه عن سليم الأول بالقبول، فينقل لنا حوارًا بين السلطان سليم الأول والقائد المملوكي طومان باي يحمل في طياته تعليلًا لما فعله السلطان سليم بالقائد المملوكي:

لمّا دخل طومان باى على السلطان سليم حياه بتحية الملوك وردّ عليه السلطان سليم بتعظيم وإجلال وأجلسه في مجلسه وأعز جانبه وأجله، وأمعن النظر بضع دقائق في شمائله التي تبعث على الحيرة وابتدره قائلاً:

(أرسلت إليك سفرائي أكثر من مرة راغبًا في دفع الشقاق الذي بيننا، وقد رضيت بسك العملة وقراءة الخطبة باسمي رغبة في توحيد كلمة المسلمين، وقد من الله عليَّ بالنصر في كل حرب خضناها، أما أنت فقد استمسكت برأيك حتى إنك قتلت سفرائي في الطريق).

وقد تذرع طومان باى أمام ملك الإسلام قائلًا " لا ذنب لي في قتل السفراء ولا جريرة، وإن الأمراء المماليك لم يوافقوا على قراءة الخطبة باسمك، ولم يكن لنا من اختيار في الحرب سوى المحافظة على العيال. فرد عليه السلطان سليم قائلاً: " وأنا لم أحشد جيشي إليك من قرارة نفسي، فإن ملككم الغوري قد اتفق مع الشيعة وصار سدًا أمامنا واستهدف مُلكنا. وقد أقدمنا على حرب إيران دفعًا لشركم بناء على الفتاوي التي أفتاها علماء الأناضول عندنا، وكم كنا نجنح إلى السِّلم، بيد أننا عُدمنا الوسيلة سوى السيطرة على مُلككم بغية النجاة من تسلطكم ومن سعيكم الدؤوب للهجوم على جيشنا وقتل سفرائنا. وأنتم شرذمة أرقاء من أولاد النصارى كما يقول الرجال، لم يأمن من شركم لا عباد الله ولا الممالك الإسلامية التي جاورتكم ولا حتى السلاطين والأمراء، وقد شرعنا في محاكمتكم وفق أحكام الشريعة.([٧٩])

عاد الملك أدراجه بعد ذلك إلى قصره في الوسطانية، وعندما كان مشغولًا بالتفكير في منح مصر لطومان باي أو الصدر الأعظم يونس باشا لاستكمال أسباب استتاب الأمن في دولته، كان قد ذاع خبر أسر طومان باي في أنحاء دولته ولم يتوان المماليك عن خلق الدسائس الحربية وإثارة الفساد في الدولة حتى إنه لما أرخى الليل سدوله هجمت ثلة من أنصار طومان باي على أطراف المدينة وبلغت من شجاعتهم أن السلطان سمع صدى أصواتهم في الطرق المؤدية إليه: فلينصر الله السلطان طومان باي"، أيقن السطان سليم أنه لن يتسن له أن يحقق الأمن والراحة في بلاده وتهدئة الأفكار مادام طومان باي ينعم بالحياة وأنه من

([٧٧]) نامق كمال، أوراق پريشان،، سيرة سليم الأول، ص: ٧٥.
([٧٨]) نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة سليم الأول، ص: ٧٧.
([٧٩]) نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة سليم الاول، ص: ٨٢.

واجبه تأمين البلاد، فأصدر قراره بقتله وتعليقه على باب زويلة قربانًا لهدفه المقدس الآني الذي يسمو إليه.([٨٠])

الفصل الثالث:المبحث الخامس:سيرة أمير نوروز بك

استهل نامق كمال سيرة أمير نوروز بك بمقدمة ذكر فيها الفوائد الجمة التي ابتغاها من ذكر سير الأبطال السابقين، فهي من المكات العلوية التي توقظ الضمير وتهذب الأخلاق وتغذي المكارم، وان عرضها بأسلوب أدبي رائق يسهم في تربية الروح وتزكية النفس، وأبان عن حزنه العميق من جهل الكثيرين سيرة المجاهد أمير نوروز بك الذي كان مثالًا يُقتدى في حُب الوطن وإيثار المصلحة العامة على المنفعة الشخصية، يقول نامق كمال:

تتجسد العبرة في هذا العالم بالتدقيق في بدائع الصنائع وتقليد الآثار ومداولة الأفكار، والنظر بعين الاعتبار في آثار البشر. لو أن رجلًا اجتهد من تلقاء نفسه على تزكية نفسه فإنه يستطيع أن يسمو إلى الطهارة والشرف أكثر من الطفل الذي لم يزل في طور تعلم مهارة التكلم والاستعداد للتطور والترقي. حتى إن صداقة هذا الصنف من البشر لاتكاد تختلف كثيرًا عن أطفال المدرسة الذين يعيشون في حضارة إنسانية اكتسبت تربية الصحراء الموحشة واقتصرت على شعب يتألف من عدد من الخيام. وإن حب الوطن بصفة خاصة والتحيز للأمة، ومجاهدة الحقيقة، واستحقار المنفعة الشخصية ليست من الأحاسيس العادية التي توقظ الضمير وتغذي المكارم فحسب وإنما هي من الملكات العلوية التي ستتكون بالعديد من أسباب التشويق والدعوة إلى السمو باتباع هدى السابقين ومحاكاتهم، وكلما كانت هذه الملكات في حد ذاتها محط نظر الضمير في مستوى يكون محببًا لقلوب العالم أجمعين فإنها تنأى بالقلوب التي سكنتها عن حب الظهور والصيت ولا تنجذب إلى مُغريات الدنيا. وقد أظهر أرباب الأدب أن أكبر عامل في تربية الروح وتزكية الأفكار وتزيين الأخلاق يتمثل في الأدب الذي يعد أنفع أقسام الفنون، وأنه ليس ثمة شيء غيره يُجدي في تلبية مطالب القلب في الظاهر، وليس ثمة واقعة تاريخية أنجع من امتثال المُثل المعروفة عن الفضيلة في الأمم الحاضرة والقديمة، ويتسنى لقوة خيال الشعراء واليسير من مهارة الأدباء أن تنقش هذا في وجدان الأمة وحافظتها.([٨١])

ومن أسفٍ أنه قد تنوسيت فيما بيننا ولربما لم تؤخذ بعين الاعتبار أكثر مآثر أدبائنا التي لم يتسن لها أن تنتشر على النحو الصحيح حتى عصرنا هذا. وتعد هذه المآثر من أعظم ما أبدعته الفطرة الإنسانية في عصور ازدهار الحضارات الإسلامية، حتى إن أسماءهم لا تزال تذكر بين ثنايا كتب التواريخ التفصيلية، وإن الكثرة الكاثرة من أفعال السابقين التي رأيناها الآن مثالًا يسمو فوق قدرات البشر في الأخلاق العامة وتتدثر بتعاليم الإسلام والتي كانت تعد في نظرهم أمورًا اعتيادية تصيب تاريخنا وعقولنا بالدهشة والحيرة، وإن تهذيب الأخلاق هو المقصد الأصلي من حكايات السلف التي حرروها دون إعطائها أي أهمية معتبرين إياها من الأحداث الاعتيادية.

وبناء على ماسلف ذكره فإن الاعتراف بتقصيرنا عبر سنوات عديدة يعدُّ رسالة تذكر بعظمة السابقين من أمة الإسلام في المجالات التي نرغب في تكثيرها في نتاجاتنا الجديدة الجديرة بلقب الأدب الحقيقي. وانطلاقًا من هذا فإنني قد تجرأت في تحرير سيرة ذاتية على شاكلة رسالة عن أمير نوروز المجاهد المشهور الذي ربما لا يعرفه واحد في الألف من الناس أو حتى من أرباب العلم والمطالعة، وقد كان من

([٨٠]) نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة سليم الأول، ص: ٨٥.

([٨١]) نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة أمير نوروز بك، ص: ١

أكابر عظماء الإسلام الذين لا مثيل لهم والجديرين بالاحترام والتقدير. وإن عظمة الموضوع تسقط من الأنظار ما شابه التأليف من نقص وتقصير.([٨٢])

شفع نامق كمال هذه المقدمة بالحديث عن فاجعة التتار التي فاقت كل الفواجع، وأبدع في وصفها، وفصّل الحديث عن المغول حتى استغرق الحديث عنهم مايقرب من نصف السيرة التي أعدها عن أمير نوروز بك. يقول نامق كمال:

وأعتذر أن يتناول قلم عاجز مثلى بمفرده تصوير هذا البلاء الذي لا مثيل له، فلا جرم أن البشرية لم تبتلَ منذ ستة آلاف سنة بعد طوفان نوح عليه السلام ببلاء أشد فتكًا من التتار، فقد كان جنكيز([٨٣]) أشرس من النمر وأشد خيانة من الأفعى. وهو زعيم غليظ القلب أسير لآماله سفاك للدماء، خرج من صحراء قره قور وانتشر في ربوع آسيا، وذاعت جرائمه في كل البلاد. وإذا كان يطلق على الطوفان الكبير طوفان ماء فحري أن يُقال على ظهور التتار أنه طوفان دم أو طوفان نار؛ فإذا هاجمت فرقة منهم مدينة فإنها تصير في الحال أكوامًا من العظم، ولا يبقي شيء من أبنيتها سوى ما يبدو على أنه مضغة. وإذا مر أحد جيوشهم بصحراء فإنه لا يمر دون أن تغوص أقدام خيولهم في وحل مخلوط بالدم حتى رضخات ركبهم.([٨٤])

يوافق نامق كمال كتب التاريخ في أن جلال الدين خوارزمشاه أول قائد مسلم تصدى للمغول وبذل في سبيل ذلك نفسَه وأهله ودولته، وألقى باللوم على الخليفة العباسي الذي لم يمد يد العون لجلال الدين، ولو أنه تعاون معه لما وصل المغول إلى بغداد ودمّروها وتركوها خرابًا يبابًا. يقول نامق كمال:

سبحان الله! تسلطت هذه البلية المحرقة للعالم على الإسلام وعلى خلافة المسلمين. ولم يواجه جنكيز خان أحد سوى جلال الدين محمد خوارزمشاه - مُلكًا - حالًا - مكانةً - الذي كان من ملوك الطوائف الذين لم يكفوا عن النزاع فيما بينهم، ولم يسانده أحد. ولم يفت في عضده أنه يحارب جنكيز خان دون مساعدة أحد من الملوك وأنه يواجه جيشًا قوامه أكثر من أربعمائة ألف مقاتل، ولربما كان الخوارزميون يدخلون في تلاحم عسكري مع جنكيز دون أن يدركوا مغبة هذا القتال . ولربما كانوا يتوهمون أنهم أكثر عددًا من قوات جنكيز، وقد ترك عاصمة ملكه التي كانت في ذلك الوقت أكثر مدن العالم تحضرًا خوفًا من وقوعها في يد قوات جنكيز خان، حتى إنه خّلف وراءه والدته وزوجاته وأولاده في إحدى القلاع. ولم يستطع أن يفعل شيئًا سوى أن يختفي في جزيرة لم تطأها قدم إنسان في ذلك الوقت. وكان السلطان محمد في هذا الحال من حياة المذلة والجبن. أما ما يسمى الخليفة فكان في مسرة غربية يحيا نوعًا من الوهم كأنه يريد أن ينتقم من الخوارزميين بقوات التتار. ([٨٥])

وقد ظهر جنكيز خان وأولاده الأربعة ومئات الآلاف من جنوده وكأنهم نار الله الموقدة التي نشبت في كل ربوع قارة آسيا وانتقلت إلى عروش كل من قاوم التتار. وسوى بالأرض خمسًا وعشرين مدينة كل واحدة منها تعادل إسطنبول وباريس ولندن عشرين مرة، وكان يقال لكل ملك من ملوك هذه المدن الفاتح الأكبر، وأضحت هذه المدن وقودًا للكفار. وقد تركها جنكيز تسبح في الدماء، ويتفق المؤرخون على أن

([٨٢]) نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة أمير نوروز بك، ص:٢.

([٨٣]) جنكيز خان الخاقان الاعظم تيموجين بن يسوكاي، ولد سنة (٥٤٩هـ / ١١٥٥م) على ضفاف نهر اونن في منغوليا، ينتسب الى قبيلة قيات المغولية التي كانت يرأسها والده، ويعد مؤسس امبراطورية المغول، فتح الصين شرقاً وحتى بلاد خوارزم غرباً، توفي سنة (٦٢٤ / ١٢٢٧م). انظر: بارتولد، دائرة المعارف الاسلامية، النسخة العربية اعداد وتحرير: إبراهيم زكي خورشيد وأحمد الشنتناوي وعبد الحميد يونس، كتاب الشعب، (القاهرة: د.ت)، مادة (جنكيز خان)، مج١٢، ص ٣٧٩ وما بعدها.

([٨٤]) نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة أمير نوروز بك، ص:٢.

([٨٥]) نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة أمير نوروز بك، ص:٥.

العالم الإسلامي قد وصل إلى درجة كبيرة من الانحدار وأن شعوب العالم الإسلامي كانت تأنُّ بالشكوى نتيجة نزاعات الأمراء واختلافهم وافتتان الملوك والأمراء بالحكم. ولمّا سيطر المغول على مُلك خوارزم بلغ عدد الرجال الذين أعدمهم التتار مبلغًا عظيمًا، فقد قتلت إحدى زوجات رجال التتار أهل قصر بأكمله ولم تلق أي مقاومة، وإن إحدى حركاتنا من أجل إنقاذ الأرواح وتخليصها لم تدرك حتى هذا البيت، وكان التتار يربطون بغالهم في مساجد الإسلام في المناطق التي يمرون فيها، ويعقدون مجالس اجتماعاتهم في مقابر الشهداء وكانوا ينصبون مجسمات جنكيز خان وأولاده على نواصي الطرق ويعظمونها بالسجود. أما عظماء الإسلام فقد أفادوا من خدمتهم للمغول - كانوا يهبون البنات حتى بنات السلاطين للأمراء المشركين- وكانوا لايفكرون في شيء سوى الاجتهاد لإعدام أمير ووزير من أجل الظفر برضا المغول([٨٦])

شرع نامق كمال في الحديث عن أمير نوروز بك بعد حديثه الطويل عن جنكيز خان الذي اعتمد على البراعة في التصوير الأدبي وافتقر إلى ذكر الزمان والمكان والأشخاص، وقد وافق نامق كمال العديد من المصادر التي تحدثت عن أمير نوروز بك، إذ تقول المصادر التاريخية: هو نوروز ابن الأمير أرغون بن تانجو ([٨٧])، وينتسب إلى قبيلة الأويرات المغولية، في حين انفرد الذهبي من بين المصادر المعاصرة بذكر تسمية "نوروز التركي"([٨٨])، مع أن الهمذاني المختص بتاريخ المغول وأنسابهم أثبت نسب والده بقوله: "الأمير أرغون آقا من قوم أويرات"([٨٩]) القبيلة التي كانت تعد إحدى أكبر القبائل المغولية في بلاد منغوليا وأشهرها، التي قطنت على ضفاف نهر ينسي الواقعة بين نهر أونن وبحيرة بايكال، وعُرفت تلك القبيلة بكثرة أعدادها وعتادها، وهي من أصل مغولي بيد أن لغتها تختلف قليلًا عن لغة القبائل المغولية الاخرى([٩٠]). وقد تشعبوا إلى عدة شعب، وكان لهم ملك يأتمرون بأمره، ولما تقلد جنكيز خان سُدة الحكم، سرعان ما قدموا له الخضوع والطاعة بعد مخالفته في البداية،([٩١]) كان أمير نوروز من أوائل أمراء المغول البارزين الذين أسلموا، وأسلم بسببه آلاف المغول ([٩٢]). يقول نامق كمال:

وقد ذكر المؤرخ المشهور وصّاف([٩٣]) هذه الشخصية باسم "أبو مسلم الثاني" وذكر أن أمير نوروز بك كان حريّا بلقب أمير الإسلام، وأنه كان مجاهدًا عالي الهمة. وأنه أحد أبناء رجل يدعى أرغون أغا الذي حاز مناصب عالية من الذين دخلوا في خدمة التتار مثل سائر أمراء الإسلام في عهد جنكيز خان، فقد رحل والده عن الدنيا حاملًا على ظهره خزي وعار ما تركه من مال وجاه ودنيا حصلها من خدمته أكثر من ثلاثين سنة في الإمارات الإسلامية التي كانت خاضعة للتتار مثل خراسان وسبستان والعراق وآزربيجان، وقد انتسب كل واحد من أبنائه إلى فرع من فروع جنكيز خان، وعملوا في وظيفة والدهم في خدمة التتار -

---

([٨٦]) نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة أمير نوروز بك، ص:٧.

([٨٧]) الجويني، علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد بن محمد، تاريخ جهانكشاى، نقله عن الفارسية: محمد التونجي، دار الملاح للطباعة والنشر، القاهرة: ١٩٨٥، مج ٢، ج ٢، ص ١٤٠.

([٨٨]) شمس الدين محمد بن أحمد، تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام "حوادث ووفيات ٦٩١ ٧٠٠هـ "، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت: ١٩٨٧، ج ٥٢، ص ٣٧.

([٨٩]) الهمذاني، رشيد الدين فضل الله موفق الدولة علي، جامع التواريخ" تاريخ المغول الايلخانيون"، ترجمة: محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي وفؤاد عبدالمعطي الصياد، دار احياء الكتب العربية (القاهرة: ١٩٦٠)، مج ٢، ج ١، ص ٢٣١

([٩٠]) فاسيلي فلاديميروفتش بارتولد تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة: أحمد سعيد سليمان، مكتبة الأنكلو المصرية، (١٩٥٨) (القاهرة)، ص: ١٥٢

([٩١]) فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، دار النهضة العربية بيروت: ١٩٧٠، ص ٢٩.

([٩٢]) ابن كثير، عماد الدين ابو الفدا اسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، دار المنار،القاهرة: ٢٠٠١، مج ٧، ج١٣، ص.٣٢٥.

([٩٣]) تاريخ الوصاف، وعنوانه بالكامل تجزية الأمصار وتزجية الإعصار، هو كتاب تاريخ فارسي في ذكر سلاطين المغول، وهو من تصنيف وصاف الشيرازي، فرغ من تأليفه سنة ٧٢٨هـ وذكر مؤلفه تاريخ جنكيز وأولاده إلى غازان خان ولم يقصد فيه بيان التاريخ فقط بل أراد إظهار مهارته في الإنشاء وإيراد لطائف النظم والنثر.

كانوا ولاة في دولة التتار أو أمراء جند- وكان نوروز بك حتى ذلك الزمان في خدمة غازان الذي حكم نواحي خراسان وكرمان، بيد أن نوروز بك لم يكن يقصر في جهد بذله من أجل تأييد الإسلام والعمل على رفعته وانتشاره ولم يكن راضيًا عن وظيفته في خدمة دولة التتار، وقد أدرك أن سلوك مساندة الإسلام يحتاج لنجاحه إلى مساندة أحد أمراء التتار الذين لم يكن أحد منهم قد اعتنق الإسلام بعد. وقد ربطت وشائج صداقة بين غازن وأمير نوروز بك في أيام الصبا، وقد لمس في أخلاق أمير نوروز بك استعداده الفائق لتحقيق العدالة وشرف الديانة، بيد أنه لم يكن مستعدّا للمغامرة في هذا الأمر العظيم. وعندما بلغ أمير نوروز بك منصب الصدر الأعظم للأمير بوقا([٩٤]) في دولة غازان فعل كل مافي وسعه من أجل ترسيخ أحكام الشريعة والعادات والتقاليد الإسلامية بين التتار مستعينًا على ذلك بقوته التي استمدها من وظيفته.([٩٥])

وفي الحقيقة لم يدُم تألق نجم الأمير بوقا زمنًا طويلًا، فقد أعدم في الصدام الذي نشب بين عائلة أرغون، ولم يحرز أمير نوروز النتيجة الكبرى التي ابتغاها من مغامرته، وزالت مكانته والأمان الذي كان يحظى به عند الأمير غازان بسبب العلاقة التي كانت تربطه بالأمير بوقا، حتى إن غازان فكر في القضاء عليه عندما جاءه خبر إعدام بوقا، وعندما شعر أمير نوروز بك بما يضمره غازان له من سوء، نفر من خدمة المغول وأعلن الخروج عليهم، وفاجأهم بإعلان الحرب ([٩٦])، أما الأمير غازان فقد أظهر كفاءة عجيبة في القضايا العلمية تعادل كفاءته في الأمور الإدارية على الرغم من أنه كان في التاسعة عشرة أو العشرين من عمره، فقد تعمق في كل الفنون بكفاءة عجيبة، وكانت له اليد الطولى في علوم الفلسفة والمنطق، وكان قوي الإدراك سريع البديهة في نظريات علم الكلام والبراهين، بيد أنه كان لا يستطيع أن يتحرر من الشبه العقلية وتأثير نشأته التترية وسفسطة المذاهب الطبيعية واللاأدرية فكان يحتاج إلى من يحاوره. ولمّا رأى غازن من أمير نوروز كفاءة مصونة عن الفتور والخلل تسمو بصاحبها فوق طبائع النفس البشرية عدّ تلك العلامات أدلة ساطعات على أخلاق الإسلام القدسية، واعتبر الإسلام علامة تأييد كبرى لدولته. وعندما آنس أمير نوروز بك الأمير غازان على هيئة صالحة لدرء التردد في الأمور الوجدانية قبل بكل امتنان اقتراحه، ولما التقيا في معسكر الجيش منفردين لم يدر بخلد المجاهد العظيم أمير نوروز بك خوفًا من هذه المخاطرة العظيمة عند قبول هذا الاقتراح بعد عصيانه الأمير غازان، وهذا من أعظم الأدلة على علويته وسجاياه الطاهرة، اشترط غازان عرض الإسلام عليه حتى يعتنقه وشرع في عرض الشُّبه مطالبًا بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة، وبعد مجادلة دامت أربع ساعات بين الطرفين شرح الله صدر غازان للإسلام والهداية، فاختار غازان اسم محمود، وأعلن إسلامه في حضور الشيخ صدر الدين الحموي. وبعد إعلان غازان إسلامه اشتاق أمير نوروز بك إلى انبلاج الصبح وأيام السعادة.([٩٧]) وكان محمود غازان قد التزم تطبيق تعاليم الإسلام قدر إمكانه وكان في كفائته ودرايته مظهرًا عظيمًا من مظاهر الإسلام.([٩٨])

([٩٤]) من كبار أمراء الإيلخان ارغون بن ابغا، ساعده كثيرا في القضاء على أعدائه وعهد إليه ارغون بالوزارة مكافأة لدعمه له في تولية السلطنة في تبريز،، ثم نقم عليه بعد استبداده في الحكومخالفة أوامر الإيلخان،، وأمر بإعدامه وإخوته وأتباعهم، سنة ٦٨٧ هـ، ١٢٨٨ م،فؤاد عبدالمعطي الصياد، الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، الدوحة، ١٩٨٧، ص: ٢٨١.

([٩٦]) نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة أمير نوروز بك،ص:٥١.

([٩٧]) نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة أمير نوروز بك،ص، ٥٣.

([٩٨]) نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة أمير نوروز بك،ص:٥٥.

تتفق المصادر على أن أمير نوروز بك قد تبوأ مكانة سامقة في دولة محمود غازان وأن ذلك كان سببًا في استثارة أحقاد المنافسين له ولا سيما صدر الدين جهان الزنجاني، تقول المصادر التاريخية: تعاظم نفوذ أمير نوروز بك وكأنه الحاكم الفعلي في البلاد، فلم يرق ذلك لفئة من كبار الأمراء والموظفين كان على رأسهم الوزير صدر الدين جهان الزنجاني الذي أعاده السلطان محمود غازان إلى منصب الوزارة، أدرك أمير نوروز بك أن عودة صدر الدين جهان إلى منصب الوزارة رغمًا عنه سيحِدُّ من نفوذه ويقرب نهايته، وما إن عاد الأخير إلى الوزارة حتى عمل في محاولة الانتقام من أمير نوروز الذي سبق وأن عزله، بدأ صدر الدين محاولته بالاتصال بخصوم أمير نوروز بغية الانقضاض عليه،([٩٩]) وقد ذكر ذلك نامق كمال دون تفصيل، والتزم الصياغة الأدبية للأحداث دون الاهتمام بالتفاصيل الدقيقة المهمة، يقول نامق كمال:

بيد أن صدر الدين لم يكن فتّانًا للأمير محمود غازان فحسب، بل إنه كان يمتلك فكرًا شيطانيًا يصلح لأن يخدع به العالم كله، فقد شرع في التدبير وحياكة المؤامرات ضد المجاهد صاحب الحمية أمير نوروز بك الذي كانت تربطه به أواصر صداقة، فقد حاكى خط أمير نوروز بك وكتب خطابًا باسم نوروز بك إلى سلطان مصر، جاء فيه:" لاريب أن سلطاننا قبل أحكام الشريعة ويعمل ما أمكنه جهده على إحياء الشريعة ومساندتها، إلا أن الأمراء يعارضونه ويعقدون العزم على إسقاطه وتنحيته عن السلطة بسبب تنشئته الإسلامية، وأنه لا يقوى على مقاومتهم، وأنه إذا انتقل إلى الدار الآخرة فإن الأمراء التتار لن يترددوا في الانقضاض على من لجأوا إلى جناب صاحب الرسالة وارتكاب الجرائم في حقه، ورتب هذه الرسالة الكاذبة، وأخبر السلطان غازان أنه قبض على رجالات نوروز بك، وزيّف خطابًا آخر إلى حاجي بك من نوروز بك، يقول فيه:" إذا انتصر سلطان مصر فإن كل الأمراء المغول سيخضعون له، وقد اتفقنا على ذلك " وقد استطاع أن يدسها بين أوراق حاجي بك عن طريق أحد جواسيسه الذي استطاع أن يستميله بين دائرة أمير نورز بك. وعندما قرأ غازان الرسالة لم تطاوعه نفسه في تصديق ما رآه من خيانة تخالف جميع تجاربه مع نوروز بك، فقد تحمل أمير نوروز كل أنواع الحدّة في طباعه إبقاء لوشائج الصداقة التي تربط بينهما، وكان في نيته التحري عن سائر الأوراق وتفتيش مقر إقامة أمير نوروز ليس غير، ولكن عندما ظهرت الرسالة الأخرى بين أوراق حاجي بك فإنه من ناحية كان يتصف بحدة الطبع ومن ناحية أخرى فإن صدر الدين قد وتّره على نحو أفقده شعوره تمامًا وزاد في تأليبه على أمير نوروز بك، وذكر له أن الاتفاق مع مصر قد أُبرم، وكرر هذا الكلام، فأصدر غازان فرمانًا عامًّا في كل أرجاء مملكته بالقبض على كل أفراد أسرة أمير نوروز بك خفية من أجل إعدامهم، وعيّن أميري جيش على خراسان، وأمر بإعدام أمير نوروز وكل من ينتسب إليه. وعندما أخبر أمير نوروز بما صدر في حقه وأنه يجب عليه أن ينجو بنفسه أيًّا كان الأمر قال لأخيه بعزيمة فدائية:"اجتهدت قدر طاقتي، وكان هدفي نصرة الإسلام، وقد تحقق هدفي بعناية الله، والدنيا فانية ويبقى عملي، ولو كنت أعصي ملكي من أجل نفسي فليكن قتلي حلالًا".([١٠٠])

وفي الوقت نفسه كان يسير بجيشه من نيسابور إلى هرات عاقدا العزم على العمل بهمة دؤبة للمحافظة على حياة من معه، وتصادف أثناء سيره بأحد الجيوش التي خرجت للقضاء عليه، وكان هذا الجيش يزيد

([٩٩]) نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة أمير نوروز بك،ص:٥٨.
([١٠٠]) نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة أمير نوروز بك،ص:٧٢.

على جيش أمير نوروز بك عشرة أضعاف، وقد استطاع جيش أمير نوروز بك أن يفلت منه ويصل إلى هرات قبل جنود غازان، وتحصن في قلعة هرات، وكان فخر الدين من ملوك هرات.([١٠١])

ويبدع نامق كمال في تصوير كيفية تآمر صدر الدين مع قتلقشاه للخلاص من أمير نوروز بك، فيقول:

وقد جرت العادة على أن إمكانية الخلاص شديدة الندرة عند مقارنة إمكانية نجاة غضنفر التفت أفعى حول جسده بخائن يزدان بالشهامة ويتظاهر بالصدق، فإن أمير نوروز بك قد اعتمد في درجة نهائية على صداقته بفخر الدين الذي كان من أقاربه وممن شملهم بعنايته، وبناء على ذلك تحصن في هرات منتظرًا مآل أمره.([١٠٢])

وقد نصحه جماعة من أصدقائه المقربين قائلين له:" إن ملك الله واسع فلم نحبس أنفسنا بين أربعة جدران" بيد أن أمير نوروز أصر على رأيه بوجوب توضيح الأمر للسلطان محمود غازان وإعلامه أنه بريء من كل التُّهم التي ألصقها الوشاة به.([١٠٣])

أرسل السلطان محمود غازان الأمير قتلقشاه بعد عدة أيام بجيش عرمرم كالبلاء من أجل تطبيق الأحكام بالقبض على أمير نوروز بك، وقد راجع الجيش فخر الدين من أجل تنفيذ الأحكام. اجتهد أمير نوروز بك لتوصيل رسالة إلى السلطان محمود غازان، وأراد أن يوسط قتلقشاه، بيد أن قتلقشاه كان شديد الخصام مع أمير نوروز بك، فتبرأ من مروءة إرسال الرسالة ومن إسعافه في التماسه.([١٠٤])

بدأت المخابرات بين كل من فخر الدين وقتلقشاه، ويُعدّ اتفاقهم على مقدار أجر الخيانة الذي سيأخذه فخر الدين من أجل القضاء على أمير نوروز بك المشهدَ الغريب المستهجن في هذه السيرة.([١٠٥])

ولمّا جيء بأمير نوروز الذي خلص ملايين الناس من بلاء عبادة غير الله إلى قتلقشاه كان أمير نوروز لايفكر في شيء سوى إرسال رسالة إلى السلطان محمود لتبليغه بعض الوصايا عن بحثه عن شتى السبل من أجل المحافظة على مقصده. ولما رأى وجه قتلقشاه يسفر عن رفض وعدم قبول تنازل عن تكرار طلبه وقال:" إلهي أنت عون الإسلام وأنت خلقت الأسباب من أجل عز الدين" ونطق بالشهادتين وأسلم نفسه لسيف الظلم.([١٠٦])

الفصل الثالث:

كتاب أوراق پريشان رؤية نقدية تاريخية:

يتضح لنا بعد عرض كتاب نامق كمال أوراق بريشان في الفصل السابق من هذه الدراسة أنه كتب المقالة التي صدّرها هذا الكتاب وهذه السير بإيمان وحب عميقين بالخدمات العظيمة التي أسداها أبطاله لدينهم ومجتمعاتهم، ولم يتسن لنامق كمال أن يخفي إعجابه الشديد بأبطال كتابه، فكتب كتابه في معية هذا الأعجاب الشديد الذي أودى به إلى التغاضي عن بعض المثالب والعيوب التي طالت بعض أبطاله كما وردت بعض الهنات والعيوب في أسلوب تناول نامق كمال سيرة هؤلاء الأبطال، وقد عرضت ذلك تفصيلًا ، ونسطيع سرد هذ الهنات والمثالب في هذه العناوين:

([١٠١]) نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة أمير نوروز بك،ص:٧٥.
([١٠٢]) نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة أمير نوروز بك،ص:٧٩.
([١٠٣]) نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة أمير نوروز بك،ص:٨١.
([١٠٤]) نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة أمير نوروز بك،ص:١١٥.
([١٠٥])نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة أمير نوروز بك،ص:١١٦.
([١٠٦]) نامق كمال، أوراق پريشان، سيرة أمير نوروز بك، ص:١١٨.

أ. إغفال ذكر المصادر والمراجع:

أغفل نامق كمال ذكر المصادر والمراجع التي استقى منها معلوماته في كتابه أوراق بريشان، ولم يذكر أيًّا منها لا تصريحًا ولا تلميحًا، كما لم يذكر أسماء المستشرقين الذين تصدى لتفنيد آرائهم، وكان يكتفي عادة بعبارة الطاعنين في الإسلام أو أهل الصليب، ولم نعثر على اسم مستشرق في كتابه أوراق بريشان سوى اسم المستشرق الفرنسي ميشون الذي ذكره صراحة في مقدمة سيرته عن صلاح الدين إلا أننا نعثر في ثلة من المصادر التي تناولت نامق كمال بالدراسة والتدقيق ذكرًا لبعض المصادر التي اعتمد عليها نامق كمال، يقول أحمد طانبينار:

ويلزم إعداد بحث واسع لتحديد الأفكار والمصادر التي اعتمد عليها نامق كمال في إعداد هذه السير الأربع التي حاول فيها الرد على المؤرخين الغربيين، فعندما كتب نامق كمال عن صلاح الدين الأيوبي تأثر بكتاب ابن شداد "سيرة صلاح الدين" وكتاب أبي شامة "الروضتين في أخبار الدولتين"، فقد تُرجم أولهما إلى اللغة التركية قبل كتابة نامق كمال كتابه، وطُبع ثانيهما في إسطنبول بعد فرمان التنظيمات. وقد كتب نامق كمال مسرحية جلال الدين خوارزمشاه" و"سيرة أمير نوروز بك" بعد قراءته كتاب "سيرة جلال الدين خوارزمشاه" للشاعر وصّاف، وحينما كتب عن حياة السلطانين محمد الفاتح وسليم الأول فإنه استفاد من المصادر المحلية وعلى رأسها كتاب "تاريخ التواريخ"، كما استفاد من اهتمامه بقضايا الشرق في أعماله مثل مقالة "أوروبا لا تعرف الشرق"، ولا ريب أن هاتين السيرتين الأخيرتين كانتا ردًّا على أحكام المستشرق النمساوي هامر بحق هذين الحاكمين.([١٠٧])

ب. السطحية وعدم التعمق:

إن قراءة كتاب نامق كمال أوراق بريشان قراءة متأنية تخلق في ذهن القارئ انطباعًا بعدم تعمق الكاتب في الكتاب عامة ولاسيما في المبحث الأول منه، فقد أرّخ نامق كمال في هذه المقالة للدولة الإسلامية منذ مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم واعتناق الترك الإسلام وحياتهم التي اتسمت بالهجرة وتكوين مجتمعات إسلامية في كل مكان ينتقلون إليه ونشأة الدولة العثمانية على يد أرطغرل واتساعها ونهضتها حتى آخر عصر السلطان سليمان القانوني، ولم يذكر تاريخًا أو واقعة سوى فتح القسطنطينية، كما تحاشى تمامًا الحديث عن الأوضاع الاجتماعية والثقافية والعلمية وحياة العمران على الرغم من أن تأريخه لهذه المرحلة عظيمة الأهمية في تاريخ الدولة العثمانية الغاصّة بالأحداث الجسام التي غيرت وجه العالم في ست وعشرين صحيفة، واقتصر ذكر الأسماء في هذه المقال على أسماء السلاطين العثمانين وخير الدين باشا وخير الدين بربروس وفرقة الإنكشارية التي نسب إليها الفضل في هذه المقال في توسيع الفتوحات العثمانية ويرى في كتابات أخرى أنها السبب في انهيار الدولة العثمانية.

يقول ابن خلدون عن التاريخ ما فحواه: إنه في حقيقة أمره نظر وتحقيق وتأمل ودراسة وفحص لمختلف أوجه النشاط البشري فيما مضى من العصور لرصد أسباب الظواهر التاريخية المختلفة والكشف عن جوانب العلاقة السببية في طيّات الأحداث التاريخية ورصد بدايات الأحداث ومعرفة أصولها.([١٠٨])

ج. غلبة الجانب الأدبي على الجانب التاريخي:

كان نامق كمال من طائفة المؤرخين الأدباء، وبدت في الكتاب سمات الأديب طاغية على صفات المؤرخ، وكان تغليبه الجانب الأدبي في كتاب أوراق بريشان خاصة قد ساقه إلى الانشغال بصياغة الألفاظ وتنسيقها وصياغة التشبيهات والاستعارات والكنايات عن تفصيل القول في الأحداث التاريخية فجاءت عباراته في أسمى درجات الفصاحة والبلاغة والوضوح، بيد أنك لا تخرج من هذه الجمل التي اتسمت بالطول بمغزى تاريخي قدر الذي تفيده من بلاغتها التي تخلب الألباب. يقول نامق كمال عن فاجعة التتار: وأعتذر أن يتناول قلم عاجز مثلي بمفرده تصوير هذه المصيبة التي فاقت كل المصائب؛ فلا جرم أن البشرية لم تبتلَ منذ ستة آلاف سنة بعد طوفان نوح عليه السلام ببلاء أشد فتكًا من التتار، فقد كان جنكيز

([١٠٧]) أحمد حمدي طانبينار، المرجع السابق، ص: ٣٥٤.

([١٠٨]) مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، ١٩٨١، ص:٣٥ بتصرف

أشرس من النمر وأشد خيانة من الأفعى، وهو زعيم غليظ القلب أسير لآماله سفاك للدماء، خرج من صحراء قره قور وانتشر في ربوع آسيا، وذاعت جرائمه في كل البلاد. وإذا كان يطلق على الطوفان العظيم طوفان الماء فحري أن يقال على ظهور التتار أنه طوفان الدم أو طوفان النار؛ فإنه إذا هاجمت فرقة منهم مدينة فإنها تصير في الحال أكوامًا من العظم، كان لا يبقي شيء من أبنيتها سوى ما يبدو كأنه مضغة. وإذا مر أحد جيوشهم بصحراء فإنه لا يمر دون أن تغوص أقدام خيولهم حتى رضخات ركبهم في وحل مضرج بالدماء. فهذه الجمل تحمل بين طياتها العديد من التشبيهات والاستعارات والكنايات التي وظفها نامق كمال بمهارة فائقة لتصوير التتار، وقد برع في ذلك، بيد أنك لاتعرف من هذا السياق تاريخ ظهور التتار، ولا أسماء المدن التي قوضوا أركانها وهدموا بنيانها.

د. تسليط الضوء على أحداث تاريخية وإغفال أخرى رغم أهميتها:

بدا هذا الخلل واضحًا في الكتاب، فقد استغرق حديثه عن موقعة حطين ما يقرب من نصف سيرة صلاح الدين وأغفل الحديث عن العديد من معارك صلاح الدين في الشام ضد الصليبيين، وعند حديثه عن سيرة محمد الفاتح كان جل حديثه عن فتح القسطنطينية غاضًّا الطرف عن فتوحاته في أوروبا الشرقية واستعداده لفتح روما. وعند حديثه عن سليم الأول جعل الحديث عن مصر وما دار بينه وبين المماليك في مصر عصب السيرة، على الرغم من فتوحاته في العراق والشام، وعند الحديث عن أمير نوروز بك أسهب في الحديث عن جنكيز خان ودواهيه التي أصابت المسلمين ولم يتطرق للحديث عن أمير نوروز بك إلا في منتصف هذه السيرة.

ويتعمد نامق كمال أن لا يشفي غليل القارئ الذي يبتغي سبر غور الأحداث التاريخية، وإنما يعرج على أحداث تاريخية ذات صلة وثيقة بالشبه التي يعرض لها في آخر كل سيرة ويجتهد لتفنيدها، ويبدو الأمر أشد وضوحًا في سيرة كل من صلاح الدين ومحمد الفاتح وسليم الأول.

هـ. الجمع بين المتناقضات:

ويبدو ذلك واضحًا في ثنائه على فرقة الإنكشارية في مقالة دور إستيلا في المبحث الأول من الكتاب، ثم عدها فرقة السبب الأساس في ضعف الدولة العثمانية وانهيارها، وأنه لا سبيل لنهضة الدولة سوى بالقضاء على فرقة الإنكشارية،دون أن يذكر العوامل التي أدت إلى تحول الإنكشارية من أداة بناء إلى معول هدم، وينحاز نامق كمال لبيازيد الثاني في حربه ضد أخيه الأمير جم،لأن بيازيد الثاني أكبر أبناء محمد الفاتح، فهو الأحق بالحكم، وفي القوت ذاته ينحاز لسليم الأول في نزاعه الحكم مع أخيه الأكبر. ويتضح هذا التناقض أشد الوضوح في الحوار الذي أجراه نامق كمال على لسان بطله سليم الأول والقائد المملوكي طومان باي، فنامق كمال يرى طومان باي والمماليك أرقاء أبناء نصارى لم يسلم من شرهم أحد، وفي آخر الحوار يقول إن السلطان سليم كان يفكر في منح مصر للقائد المملوكي طومان باي، وأنه كان راضيًا في أول الأمر بسك العملة وقراءة الخطبة باسمه دون دخول مصر.

و. التزام الدفاع عن أبطال كتابه في سائر الأحوال:

يدافع نامق كمال عن أبطاله حتى الرمق الأخير، فيسرد عن محمد الفاتح البطولات والتضحيات، ولا يعترف بأوزاره ومثالبه، وإن كان ثمة هنات يسوقها المستشرقون وغيرهم في حقه فالرجل معذور، يقول نامق كمال: نعم، إنه سفك دماء غزيرة، وأباد جنودًا كثيرة، وقتل ملوكًا عدة، وحاسب رجاله حسابًا نكرًا إلا أنه لم يتدنس قط باستعباد شعبه أوقتل أهل البلاد التي تولى أمرها ولم يحكم أحكاما قاسية على المجرمين برغم أن تلك الأمور كانت من طبيعة تلك العصور المظلمة.

وأرى ذلك شططًا من نامق كمال، فهل يسوغ لنا القتل وسفك الدماء إذا صار القتل وسفك الدماء طبيعة عند قوم في عصر من العصور؟ والأمر نفسه ألفيناه في سيرة سليم الأول الذي أحبه نامق كمال حبًا جمًا، فيقول عنه: ولا ريب أن السلطان سليم الأول بلغ هذا المقصد سابحًا في الدم، والحقيقة أنه لم يكن لديه رفاهية الاختيار لتحقيق النتائج المطلوبة، ولم يكن ثمة شخص قادر على كشف حقيقة مجموعة من المعضلات والولوج إلى غياهب الظلمات التي كانت ممتدة في ذلك الزمان. وإذا وجدت ثمة حيلة ناجعة لدفع بلاء مبرم

ناتج عن مجموعة من التدابير فمن الضروري النظر إلى حكمة ماهية الأفعال وليس النظر فقط إلى النتائج.

ز. إغفال ذكر الشخصيات والتواريخ والأماكن ذات الصلة بالأحداث:

مما يسترعي الانتباه في كتاب نامق كمال أوراق بريشان أنه لم يذكر اسم مؤسس الدولة العثمانية أرطغرل بن سليمان، وذكر اسم ابنه الذي ولي من بعده حكم الإمارة العثمانية التي كانت تابعة آنذاك للسلطان السلجوقي في قونيه، كما أغفل نامق كمال ذكر التواريخ، فلا يكاد القارئ يصادف تاريخ حادثة أو واقعة أو تاريخ جلوس سلطان على العرش من السلاطين العشرة الذين ورد ذكرهم في مقالة دور إستيلا او الأربعة الذين تحدث عنهم في سير ذاتية سوى تاريخ مولد كل من صلاح الدين ومحمد الفاتح وسليم الأول. وجاءت كل الأحداث سردًا دون تحديد الزمان والمكان. وإذا كان نامق كمال قد ذكر السلاطين العثمانيين الأُوَل في مقالته دور إستيلا التي صدّر بها هذا الكتاب فإنه لم يذكر أيًّا من الصدور العظام أو القادة الذين كان اضطلعوا بدور عظيم في الدولة العثمانية، وذكر جندرلي خليل خير الدين باشا ([١٠٩]) أول من حاز لقب الصدر الأعظم في الدولة العثمانية، وتحدث بجملة واحدة عن خير الدين بربروس أعظم قائد بحري في الدولة العثمانية، وأغفل غيرهم ممن ساهموا في نشأة الدولة العثمانية أو عملوا على ترسيخ دعائم الدولة العثمانية وعاشوا في المدة الزمنية التي تناولها نامق كمال في مقالته.

ح. إغفال الحديث عن أبطال الدولة السلجوقية:

أغفل نامق كمال حكام الدولة السلجوقية، ولم يعرض لهم في كتاباته لا تصريحًا ولا تلميحًا، على الرغم من الدور العظيم التي اضطلعت به الدولة السلجوقية في حماية الدولة الإسلامية من غارات الصليبيين في موقعة ملازكرد عام ١٠٧١م،([١١٠]) والحال أنه خصص سيرة كاملة على شاكلة مسرحية للحديث عن جلال الدين خوارزمشاه، فإذا كان أبطاله الذين عرض لهم يمثلون أفكاره فكان انتصار آلب أرسلان في ملازكرد يمثل وحدة الإسلام في مواجهة الصليبيين، فكان الأجدى به أن يخصص سيرة لألب أرسلان أو ملكشاه، ولا نعرف السر في إغفال نامق كمال ذكر السلاجقة رغم أنهم من الترك، هل لأن السلاجقة كانوا سادة العثمانيين، وأنهم كانوا أمراء ثُغر تابعين للسطان السلجوقي في قونيه؟ لا نعلم إجابة هذا السؤال.

ط. التحيز المطلق لأبطال الكتاب:

تعدُّ قضية التحيز المطلق للعثمانيين ولا سيما العشرة الأول في مقالة نامق كمال "دور إستيلا "من المآخذ التي بدت واضحة في كتاباته التاريخية، ونتساءل: هل كان هذا التحيز من نامق كمال ردّ فعل على توجُّه الدولة العثمانية منذ عهد التنظيمات تلقاء التأورب بعد هزيمة العثمانيين في أوروبا وبداية زوال الوجود العثماني في أوروبا، وولع المهزوم بالمنتصر وشغفه بتقليده ؟ وهل كان ذلك جراء الغزو الثقافي الغربي ومحاولة الغرب فرض ثقافتهم على المجتمع التركي ؟ ولا ريب أن العالم التركي بدأ ينفتح على العالم الغربي منذ نهاية القرن الثامن عشر، يقول أحمد حمدي طانبينار: ولا جرم أن اعتراف الرحالة التركي يكرمي سكز محمد جلبي بتفوق الحضارة الغربية على حضارتنا يعد في ذاته أمرًا عظيمًا لم يكن أحد من الترك يعترف به قبل القرن الثامن عشر حتى أجبر التفوق الأوروبي الشعب التركي على الإقرار بذلك، فلم يرَ محمد جلبي باريس التي ذهب إليها عام ١٧٢١م سفيرًا للدولة إبان عهد السلطان أحمد الثالث (١٦٧٣ - ١٧٣٦) بعين كبرياء المحارب التركي الذي يتذكر مجد وعظمة دولته إبان حكم السلطان سليمان القانوني، فقد نظر إلى باريس من بين ثنايا الأحزان التي أثارتها في الشعور القومي معاهدتا قارلوفيتش وبصاروفيتش؛ فقد مرَّت الإمبراطورية العثمانية في ذلك العصر بحادثتين دمويتين كبيرتين جرحتا كبرياءها وفخرها في الحرب، فقد فقدت كلًّا من بودين وبلجراد، وخلاصة القول، تغيرت الأوضاع الدولية لغير

[109] (İsmail Hakkı Uzunçarşılı, Çandarlı vazir ailesi, Ankara ,1991..s18.

([١١٠]) عبدالنعيم محمد حسنين، سلاجقة العراق وإيران، مكتبة النهضة المصرية، ص: ٥٢.

صالحنا، وفضلًا عن ذلك كان الخطر الروسي الذي استشعره أوليا جلبي ووصفه بأنه تهديد مرتقب وإن كان بعيدًا موجودًا فعليًّا، ولم يحظ كتاب على الإطلاق في تاريخنا في مرحلة التغريب بأهمية مثل كتيب محمد جلبي المسمى سفارتنامه، فلقد خلق في نفس القارئ إحساسًا غيّر المناخ والحياة الخيالية التي كان يحياها بما عقده من مقارنات في كل سطر منه بين حالنا وحال الغرب المتقدم.([١١١])

ولاريب أن وتيرة الإتصال بأوروبا زادت في القرن التاسع عشر، يقول أحمد حمدي طانبينار: أمّا حركة التجديد في القرن التاسع عشر فكانت سريعة بفضل الأحداث التي وقعت والتطور الفكري الذي اصطبغ بصبغة معنوية واسعة شملت كل ميادين الحياة، فلم يكن موضوع البحث آنذاك إصلاح الجيش وفق النظم والعلوم الغربية فحسب، بل كان تغيير جميع أنماط الحياة وبنية المجتمع ومنظومة القيم التي أنشأت الإنسان المعنوي والحياة بأسرها هدفًا أساسيًا، ومن ثم فقد كان تأثيرها كبيرًا على تقويض القديم بعد قرن من بدايتها. وبديهي أن هذه التجديدات التي ظل معظمها على السطح قد حملت بين ثناياها أشياء كثيرة لم تنل إعجاب الشعب ورجالاته، بيد أن شعب إسطنبول الذي رأى إلغاء فرقة الإنكشارية إلغاء دمويًا لم يكن في حالة تمكِّنه من الاعتراض على أشياء مثل هذه، وينقل أحمد حمدي طانبينار في هذا الصدد قول رئيس الكتاب عاطف أفندي عن طلاب البعثات العلمية العثمانية: أن أصحاب الفكر الإلحادي الذين كانوا مشهورين بأسماء فولتير وجان جاك روسو ومن كان على شاكلتهم من الدهريين كانوا يبثون دعاوى التمرد ضد اتحاد الإمبراطورية وضد الاتصال العلمي المثمر بعلماء الغرب في القرن الثامن عشر.(١١٢)

ويبدو من كتابات نامق كمال أنه كان مستمسكًا بأصوله العثمانية ذات الطابع الإسلامي، وأنه رأى في اتباع سير أبطاله طوق نجاة للأمة من البلاء المحدق بها، بيد أن نامق كمال قد أفرط في حبه لأبطاله وانحيازه لهم ولا سيما الترك العثمانيين، فتغاضى عن أخطائهم والتزم الدفاع عنهم وتبرير مثالبهم دون أن يعدل عن ذلك.

ولقد فصل ابن خلدون القول في (مايعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام وذكر أسبابها) وجعل أول هذه الأسباب" عدم التزام الموضوعية سواء من جانب راوي الحادثة أو من طرف ناقل الخبر، وقد أرجع ابن خلدون ذلك لعدة أسباب منها التشيع للآراء والمذاهب الذي يشكل غطاء على عين بصيرة المؤلف فيدفعه إلى تقبل ما يوافقها من الأخبار دون انتقاد أو تمحيص مما يجعله يقع في الكذب.([١١٣])

([١١١]) أحمد حمدي طانبينار، المرجع السابق، ص: ٧٥.
([١١٢]) أحمد حمدي طانبينار، المرجع السابق، ص: ٨٨.
([١١٣]) عبدالرحمن بن خلدون، المقدمة، دار القلم، بيروت ١٩٨١، ص٩ ـ٣٢.

خاتمة

وبعد هذه الرحلة النقدية التاريخية مع كتاب نامق كمال "أوراق بريشان" نستطيع أن نستخلص الآتي:

حاول نامق كمال الكتابة في علم التاريخ ثلاث مرات، وكان كتاب أوراق بريشان (أوراق مبعثرة)الذي صدر عام ١٨٧١م وضم مقالة دور إستيلا (عصر الفتوحات) التي صدرت في صحيفة تصوير الأفكار عام ١٨٦٧م والسير الذاتية الأربعة التي صدرت في أوقات متباينة كما هو موضح في الدراسة المحاولة الثالثة لكتابته في علم التاريخ.

حظي كتاب نامق كمال أوراق بريشان بالقبول والاستحسان لدى القراء الترك، فقد طبع ثلاث مرات في خمس سنوات من تاريخ إصداره.

كان نامق كمال يرى في التاريخ تربية للملكات العلوية في الإنسان واستنهاضًا للهمم المشوقة، ومن ثم ربط بين أعماله الأدبية والتاريخ برباط وثيق العرى.

رأى في هؤلاء الأبطال الأربعة إضافة إلى خامسهم جلال الدين خوارزمشاه أفكاره؛ فصلاح الدين الأيوبي الذي واجه غزو الصليبيين بجهاده هو بطل وحدة الإسلام، وهي أهم الأفكار التي نادى بها نامق كمال، ويرى أيضًا أن عبقرية محمد الفاتح تَوَّجت جميع مكاسب المدِّ الإسلامي بفتح القسطنطينية وجمع المسلمين في وطن واحد، وأن السلطان سليم الأول بطل وحدة الإسلام بنضاله ضد الصفويين، وفتحه مصر والجزيرة العربية، ونقله الخلافة الإسلامية إلى إسطنبول.

أفرط في حبه أبطاله وانحيازه لهم ولا سيما الترك العثمانيين، فتغاضى عن أخطائهم والتزم الدفاع عنهم وتبرير ماصدر منهم من هنات وأخطاء دون أن يعدل عن ذلك قيد أنملة.

غلب على كتاب نامق كمال أوراق بريشان الطابع الأدبي، فجاء كتابه في لغة سهلة سلسة تأخذ جملها بركاب بعض، كما أحسن توطين التشبيهات والاستعارات والكنايات، في حين أغفل ذكر التواريخ والأماكن والشخصيات ذات الصلة.

حاز نامق كمال قصب السبق بين المؤرخين الترك بحديثه عن شخصية الأمير نوروز بك الذي أغفلته المصادر والمراجع التركية في الوقت الذي أفرد له المؤرخون العرب والفرس مساحات كبيرة في مصنفاتهم التاريخية. بل إن بعض المصادر العربية تُرجع نسبه إلى الترك.

صنف نامق كمال سيرًا ذاتية من كتاب أوراق بريشان دفاعًا عن شخصيات إسلامية تاريخية لا تنتسب للترك مثل حديثه دفاعًا عن صلاح الدين الأيوبي، فدل بذلك على أنه كاتب إسلامي تخطى حدود الترك ليشمل كل العالم الإسلامي. وكانت وحدة العالم الإسلامي من أهم الأفكار التي نادى بها نامق كمال.

حالف التوفيق نامق كمال في رده على الشبه التي أثارها المستشرقون ومن كان على شاكلتهم من المؤرخين ذوي الميول الشيعية، بيد أن التوفيق لم يحالفه في ردّه على بعض الشبه المثارة ضد السلطانين محمد الفاتح وسليم الأول ويرجع ذلك إلى طبيعة هذه الشبه من ناحية، ولا سيما إذا كانت تتعلق باقتتال الأمراء ونزاعهم السلطة، ومن ناحية أخرى كان نامق كمال يبرر قسوة سليم الأول بأن الخوف على مهابة الدولة وسؤددها قد يجبره على اتخاذ قرارت قاسية وأن الامر لا يعدو أن يكون من عاديات تلك العصور.

يُستخلص من كتابات نامق كمال ولا سيما الأعمال ذات الصلة بالتاريخ أنه كان من أنصار التمسك بالموروث العثماني الإسلامي، مع الأخذ عن الغرب في المجالات التي سبق الشرق فيها؛ فالعثمانيون سلفًا قد استطاعوا حينًا من الدهر بكفائتهم وعلو همتهم إقامة دعائم دولة بسطت نفوذها في آسيا وأوروبا وإفريقيا ويستطيع الخلف أن يحافظوا على هذه الدولة بالحرية والعدالة والاتحاد.

تتجلى في سيرة أمير نوروز بك التي خلت من الرد على شبهات مثارة الهدف الأسنى من كتابة التاريخ عند نامق كمال، فهو يقول: وإن حب الوطن بصفة خاصة والتحيز للأمة، ومجاهدة الحقيقة، واستحقار المنفعة الشخصية ليست من الأحاسيس العادية التي توقظ الضمير وتغذي المكارم فحسب وإنما هي من الملكات العلوية التي ستتكون بالعديد من أسباب التشويق والدعوة إلى السمو باتباع هدى السابقين ومحاكاتهم، وكلما كانت هذه الملكات في حد ذاتها محط نظر الضمير في مستوى يكون محببًا لقلوب العالم أجمعين فإنها تنأى بالقلوب التي سكنتها عن حب الظهور والصيت ولا تنجذب إلى مُغريات الدنيا.

خلصت الدراسة إلى أن كتاب نامق كمال سالف الذكر كتاب محلي يفيد منه القارئ التركي وتتجلى فيه بوضوح أفكار نامق كمال عن الوحددة الإسلامية واتحاد المسلمين، بيد أنه لا يرقى لمستوى المراجع العلمية التي يعتد بها في الأبحاث والدراسات ذات الصلة.

قائمة المصادر والمراجع

في العربية:

ابن كثير، عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، دار المنار، القاهرة: ٢٠٠١.

أحمد بن يوسف القرماني أخبار الدول وآثار الأول، القاهرة، بدون تاريخ.

أحمد حمدي طانبينار، تاريخ الأدب التركي في القرن التاسع عشر، ترجمة مجدي حسانين إسماعيل حسن، دار العولمة للنشر والتوزيع،الكويت ٢٠٢١.

بارتولد، دائرة المعارف الإسلامية، النسخة العربية اعداد وتحرير: إبراهيم زكي خورشيد وأحمد الشنتناوي وعبد الحميد يونس، كتاب الشعب، القاهرة: دون تاريخ.

الجويني، علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد بن محمد، تاريخ جهانكشاى، نقله عن الفارسية: محمد التونجي، دار الملاح للطباعة والنشر، القاهرة: ١٩٨٥م.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام "حوادث ووفيات ٦٩١ ٧٠٠هـ "، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي بيروت: ١٩٨٧.

شيرين بياني، المغول ـ التركيبة الدينية والسياسية، ترجمه عن الفارسية: سيف علي، راجعه وقدم له نصير الكعبي، بيروت: ٢٠١٣.

عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيت الأفكار الدولية، الأردن ٢٠١٤.

عبد السلام عبد العزيز فهمي:، تاريخ الدولة المغولية في إيران، دار المعارف، ١٩٨١.

عبدالرحمن بن خلدون مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، ١٩٨١.

عبدالوهاب المسيري، إشكالية التحيز، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة، ١٩٩٦

فاسيلي فلاديميروفتش بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة: أحمد سعيد سليمان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة:١٩٥٨.

فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت: ١٩٧٠.

محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، دار النفائس، بيروت ٢٠١٣.

منصور عبدالحكيم، فلاد الثالث المخوزق ـ دراكولا، دار الوليد للنشر والتوزيع، القاهرة٢٠١٨م.
نادية مصطفى عبدالشافي، أبعاد التحيز في دراسات النظام الدولي وفي دراسات التاريخ الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة، ١٩٩٥م.

الهمذاني، رشيد الدين فضل الله موفق الدولة علي، "جامع التواريخ" تاريخ المغول الإيلخانيون"، ترجمة: محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي وفؤاد الصياد، دار احياء الكتب العربية،القاهرة: ١٩٦٠م
يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سليمان، منشورات فيصل للتمويل، استانبول ١٩٨٨ .

في التركية العثمانية:

نامق كمال، أوراق پريشان إسطنبول ١٨٧١م

نامق كمال، قانيـژه محاصرسي، مطبعة عامره، إسطنبول ١٨٦٨.

يكرمي سكز محمد جلبي، سفارتنامه باريس، إسطنبول ١٣٣١ هـ،

في التركية الحديثة:

Ahmet KAPAKLI, Türk edebiyatı, C.3, Baskı. Acar Matbaacılık A.Ş, İstanbul 1997.
Ibnülemin mahmud kemal Inal, son asır Türk **Ş**airleri, Milli eğitim basım evi Istanbul 1970.
Ilyas Karademir, Osmanılı padişahları Ansiklopedisi, Yeni Asya yayınları,Istanbul 1986.

İsmail Hakkı Uzunçarşılı, Çandarlı vazir ailesi, Türk Tarih kurumu, Ankara ,1991.
İsmail Hakkı UZUNÇARŞILI, Osmanlı Tarihi, C.3, 6. Bas, Türk Tarihi kurumu.Ankara1997.

Mithat Cemal Kuntay , Nâmık Kemal',1.cilt, Maarif matbaasi, Istanbul 1944.
Mustafa Nihad ÖZÖN, Metinlerle Türk Edebiyati Tarihi, Istanbul,1934.
Namdar Rahmi Karatay, Nâmık Kemal', ve Idealizmi, Bursa 1941.
Nâmık Kemal Hakkinda,Türk dili ve edebiyati enistitüsü neŞriyeti, no :2, vakit matbaasi, Istanbul 1942.
Nihad Sami BANARLI, Resimli Türk Edebiyat Tarihi, C.2, Istanbul 1983.
Nihad Sami Banarlı,Resimli Türk edebiyati Tarihi, Istanbul1972.
Vasfi Mahir Koca Türk, Türk Edebiyati Tarihi, Ankara 1964.
Zeynep Çelik ,Avrupa Şark'ı Bilmez, Eleşteril bir s**ö**ylem,(1872 -1932) Istanbul 2020.

Ziyad Eddin Fahri oğlu,Namik Kemal ve ideolojisi,ankara1939.

الموسوعات والدوريات التركية:

Mahmut AK, Tiryaki Hasan Paşa, İslam Ansiklopedisi, T.D.V, İslam Araştırmaları Merkezi, C.41

Murat YALÇIN, Tanzimat'tan Bugüne Edebiyatçılar Ansiklopedisi, C.2, Mas Matbaacılık A.Ş, İstanbul 2010.

Ömer Faruk AKÜN, Namık Kemal, İslam Ansiklopedisi, T.D.V, İslam Araştırmaları Merkezi, İstanbul 2006, C.32.

Ömer Faruk AKÜN, Namık Kemal'ın kitap halindeki eserlerinin ilk neşirleri,Türkiyat Macmuası, Yıl.1976, C.18.

Namık Kemal's book "Parishan Papers" is a study of management and analysis

By

Dr. Magdy Hassanein Ismail Hassan Al-Hanafi

Department of Oriental Languages, Turkish Language Division,

Faculty of Arts, Tanta University

Abstract:

The first edition of Namik Kamal's book, Evrak-ı Perişan (Scattered Leaves) was published in 1871. Three editions have been issued in five years. It is a comprehensive book. It includes the essay titled, Devr-i istila (The Era of Conquests)," which was first published in the Journal of "Tasviri Efkâr" in 1867. It also includes four biographies that were issued previously, namely: the biography of Salah al-Din, the biography of Sultan Muhammad al-Fatih, the biography of Sultan Selim I, and the biography of Amir Nawruz Bey. Each of these four biographies had a motive for writing. Namik Kamal wrote a biography Salah al-Din in response to French Orientalist "Mission," and wrote the biographies of Muhammad al-Fatih and Selim I in response to Austrian Orientalist "Hammer," and wrote the biography of the Emir of Nowruz Bey to enlighten many people, especially intellectuals, of the role played by this prince in introducing Islam to the Mongols and transforming them from a force of demolition into a force of construction. As for the first article that Namik Kamal put at the beginning of his book, it is about the history of the Ottoman Empire from its inception until the end of the era of Sultan Selim I. The language of the book is smooth and rhetorical. Also, Namik Kamal was so committed to defend the Ottomans as rulers and people, which violated the objectivity of the book, because he attempted to justify all flaws and faults of the Ottoman rulers he spoke about. Moreover, he paid more attention to the literary aspect at the expense of the historical aspects in spite of his love for history, basing his novels and plays on history, and his attempts to record the history of the Ottoman Empire more than one time.

Keys words: Namik Kamal - Evrak-ı Perişan - Historical critical study